كناسة الأدب

استاذ مساعد فى قسم الأدب والنقد
بقلم : كاظم الظـــواهرى

ولدت الحضارة المادية الحديثة صنوفا من العلوم والمعـارف والفنـون ، فضـت على بعض العلوم القديمة ، وثبتت بعضا ونمته وأثرته ، واحتفلت بتراثه ، واتخذت منه قاعدة للانطـلاق نحو حضارة زاهرة .

وفي أكثر الأمم المتحضرة تعـايش العلـم الوليد ، المسمى « الفوكلور » ـ فرع من علـم الاجتماع ـ مع سـائر ضروب المعرفة والفنون ، غير الأمة العربية التى أراد مستوردو هذا العلم والمفتونون به أن يحلوه محـل أدبهـا ، ونذروا أنفسـهم للقضـاء على هذا الأدب ، وشرعوا فى تنفيذ خطة مرسـومة محبوكة الأطراف لعـزله والتهوين من شأنه والأداة التى تصنعه ، وهى اللغة العربية ، ومنذ ذلك اليوم ولدت :

قضية عزل الفصحى وأدبها

مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد التاسع، مطبعة الأمانة ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م

كان الهدف من دراسة الفنون الشعبية دراسة علمية ، فى الأمم المتحضرة هو رصد تراث هذا النشاط ، والمحافظة عليه من الضياع ، حيث يعد الفن الشعبى مصدرا من مصادر تاريخ الشعوب أو التاريخ الاجتماعى والتطورى لها على وجه التحديد ، وتاريخ نمو الفكر والمعتقدات والتقاليد والعادات ، والبحث عن الخصائص المشتركة بين المجتمعات ، بدائية كانت أو حضرية ٠

والفوكلور Folklore : المأثورات الشعبية :

هو معارف المجتمعات غير المثقفة ، ومجموع آداب هذه المجتمعات وثقافتها المادية ، وعاداتها التى نفذت عبر تراتها الشفوى ، والأمثال والتقاليد أو المحاكيات ٠

ويعد الأدب الشعبى **Folkliterature** جزءا من الفوكلور . كالعادات والمعتقدات والرقص والموسيقى الشعبية وكل مايتعلق بالمأثورات البدائية ٠

وكل هذا يعد جزءا من دراسة واسعة هى علم الاثنولوجيا **Ethnology** ، علم دراسة الأعراق ، وهو فرع من علم الاجتماع ، ويدخل أيضا ضمن اهتمامات علماء الانثروبولوجيا **Anthropology** - علم الانسان وهو أكثر اتساعا من سابقه الذى يدخل ضمن مجالاته ٠

ويسمى دارسو الفنون الشعبية فوكلوريين **Folklorists**

وقد أصبحوا متخصصين فيها مستقلين بها عن غيرها من العلوم ٠

(دائرة المعارف البريطانية Folklore & Folkliteature)

وقد كان الدافع الى دراسة ورصد هذا النشاط الانسانى فى القرن الماضى الخوف من طغيان الحياة الحضرية ومجتمع المدينة والصناعة على خصائص الانسان والسمات التى يتحلى بها ، وتبقيه انسانا وبشرا (علم الفوكلور : دراسة فى الانثروبولوجيا الثقافية ـ محمد الجوهرى ٥٣٢ ـ ٥٣٣) .

ولسنا فى حاجة الى التأكيد على أن هذا العلم يؤثر ، ويتأثر بغيره من العلوم ، ويحتاجها وتحتاجه ، بما لايجاوز حد احتياج أى علم لآخر من العلوم الانسانية (!) والعملية ، بما فى هذا الأدب المكتوب .

الى هذا الحد لانرى غبارا أو مشكلة تنشأ بسبب وجود هذا العلم ، ولم توجد قط مشكلة أو شكوى من جانب أصحاب الأدب المكتوب ، الذين رحبوا بهذا العلم ورأوا فى وجوده خدمة للبشرية . وفائدة لهم من باب التأثير والتأثر ، بل ان المقارنين وجدوا فى التراث الشعبى مصدرا من أكثر المصادر امتاعا للدراسات الأدبية المقارنة (انظر : الأدب المقارن ـ جويار ص ٦٤ ، مقدمة لدراسة قواعد المنهج العربى فى الدراسات الأدبية المقارنة لصاحب هذه الدراسة ص١٧٧)

ونحن ـ دارسى الأدب والمتخصصين فيه ـ نقدر هذا الدور . وننظر باعجاب الى علماء الاجتماع وعملهم هذا ، ونجد متعة حقيقية فى الاطلاع على كل مايتوصلون اليه ، ومازلت الى الآن استشعر متعة ولذة فى الرجوع الى أول دراسة فى الانثروبولوجية قرأتها منذ أكثر من خمسة عشر عاما ، وأفدت منها افادة جليلة فى التعرف على عادات الشعوب البدائية ، وهذه الدراسة لعلى اسلام الفار بعنوان (الأنثروبولوجية الاجتماعية ـ الهيئة سنة ١٩٧٣م) .

ولكن كيف وجدت المشكلة ؟ وما الذى يدفعنا الآن الى صد هجوم الفوكلور والأدب الشعبى على مجتمعنا وأدبنـــا ولغتنـا ، ومؤسساتنا الاعلامية والفكرية والتعليمية ؟ ·

اننا عندما بدأنا نهضتنا الحديثة تجاذبنا تياران رئيسان :

ـ تيار أصولى : يدعو الى بنـــاء النهضة على الأصول الحضـارية العربية والاسلامية ولايرى مانعـــا من الاستعانة بما توصلت اليه الأمم فوق ماتوصلنا اليه ·

ـ وتيـــار تأثرى : يدعو الى ترك كل مابين أيدينـــا من تـراث واستمداد عناصر النهضة من الحضـارة الحديثة وراء البحـــار : جملة وتفصيلا ·

وفى كل من الجماعتين وجد معتدلون ومتشددون ·

ولو استمر خـــلاف هاتين الفئتين الكبيرتين بـلا ضرر ولا ضرار ما انتكست هذه النهضة ولا تأثرت ، بل كانت تستفيد من كـل وجه ، ولكن عـوامل خارجية مفرضة تدخلت بسـبب الصراع التـــاريخى بين الشرق والغرب ، ، وبقوة المستعمر المسيطر على مقاليد الأمور فى أكثـر بلاد الشرق آنذاك ، وبسبب داء وبيل أصيبت به طائفة كبيرة من أبناء الأمة ، وهو فقدان الشخصية فى مواجهة الغرب المنتصر القوى المتحضر ، فكان من نتيجة ذلك انتصار التيار التـــأثرى ، الذى لم يكتف باحراز النصر ، بل شرع ـ اكمالا لخطة محبوكة صنعت فى غرف سوداء ـ فى التنكيل بكل ماهو أصولى بشتى الوسائل ، وعندئذ دخل « الفوكلور » المعركة . وظهر على الساحة ، وكان ظهوره بصـورة مختلفة تمـــاما عن صورته التى نراها فى أوربة ، أى على أنه فرع من علم الاجتمـاع ، له

وظيفة تسجيلية تشريحية للعادات والمعتقدات وغيرها ، ولكنه ولد فى بلاد العرب ليكون بديلا للأدب العربى ، وتراثه الضخم ، وهذا جانب من مخطط كبير ، لمحو الدين واللغة والتراث من المنطقة العربية الاسلامية ، والأشد ايلاما من هذا أن عددا من مثقفى الأمة قد شاركوا فى هذا العمل ، بعضهم من المغرر بهم ، وبعضهم شاركوا فى التخطيط بكل مافيهم من عقل وارادة ، وأعمى الشيطان بصائرهم ! ٠

ولقد فرض علينا صراع لانريده أصلا ، وبات حتما علينا خوضه حتى النهاية ،ولانهاية حتى نرد الأمور الى نصابها ،ويعود « الفوكلور » والأدب الشعبى معه الى حظيرة الدراسات الاجتماعية ، ويترك أدبنا وشأنه ، لنتركه وشأنه و « نحييه من بعيد » ،على حد قول فولتير ! ٠

★ ★ ★

بينما ينشأ الأدب العربى فى القمم ، ويترعرع فى العلياء ، ينشأ الأدب الشعبى فى السفوح ، ويترعرع فى الفيعان ، هذا هو الفارق الجوهرى بين هذين النوعين من النشاط الانسانى ٠

ولاشك أن شيوع الأدب وتسلق الناس اليه من سفوح المشاعر والوجدانات الانسانية ، والمعارف ، ومحاولة الوصول الى مراقيه ، مدعاة للارتقاء بالوجدان والمعارف ، والتحضر والتقدم ، أما الأدب الشعبى فان نشره والدعوة اليه أنحطاط بالوجدان والمعرفة الى آفاق ضيقة محدودة، ذلك أنه هو نفسه محدود فى اطار مايتولد من المشاعر ازاء متطلبات الحياة المادية ، والمعاملات اليومية ، ومعزول عن أرق وأرقى ما يمكن أن يتسم به الانسان المتجرد من هذه الحدود المادية والمعنوية والمنطلق الى آفاق غير محدودة أو مقيدة من المشاعر الوجدانية ، ازاء الحياة والكون٠

وتقرر أنه لاخطر فى تسجيل ـ فقط تسجيل ـ هذا النوع من

النشاط الانسانى ورصد ظواهره من خلال الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية (علم الانسان) للافادة منها فى معرفة مايتعلق باهتمامات الدراسين فى هذين العلمين المهمين ولكن الخطر ، كل الخطر، ينشأ عندما ندعو الى أن يكون هذا النشاط الانسانى بديلا عن أرقى ماتبدع الأمة فى الفكر والأدب ، أو أن نوازن بينهما ، أو أن ندع أدب عمال الترحيلة والدابات ، يفرض نفسه كأدب المستقبل ، والذى يقدم على هذا مجرم يقضى على أمته بالتردى الى المهاوى والحضيض ، مهما كان عذره أو كانت نيته ! . ومهما كان فى هذه الفنون من قيمة انسانية ، فالعطف على القطط والكلاب باسم الأنسانية ليس مدعاة لقتل البشر أو تجويعهم من أجل الكلاب ! .

ولافرق - وان كانوا فرقوا - بين الأدب الشعبى فى هذا الحكم . والأدب العامى ، اذ سيتبين لنا من خلال دراستنا أنهما واحد ، وهما سواء فى خطرهما على الأمة اذا حاولا مزاحمة أدبنا فى مجالاته ونشاطه، حيث ان كلا منهما يتخذ لغة مبتذلة عاجزة جامدة ، فى الوقت الذى يحتاج فيه الأدب لغة راقية تصلح أساسا للارتقاء به من السفوح الى الذرى ، والفصحى - شرفها الله تعالى - هى تلك اللغة .

ومن عيوب العامية واللهجات الدارجة المسفة فيما يتعلق بالنشاط الابداعى :

١ - أنها تفتقر الى قواعد للنطق والتسجيل فى الأصوات المحدودة التى تستخدمها حيث تتداخل مخارج بعض أصواتها ، فتلغى بعض حروف الأبجدية فى الكلام العامى ، فالذال تقلب سينا مطلقا ، والصاد تقلب سينا فى أكثر الأحيان ، والضاد تقلب دالا ، والقاف همزة أو

جيما ، والذال زايا أو دالا ، والضـــاد والظـــاء تتداخلان ، والظاء تقلب زايا ، والكاف شينا أو جيما أو سينا فى بعض اللهجـــات ... الخ ٠ وهكذا على خلاف بين العاميات ، ولولا الأصوات المعيارية العربية ماعرفت أصولها ، ولاشك أن نقص عدد الحـروف ، عـــلاوة على التشويه وعدم الثبات فيها على نطق واحد ، يتسبـــب فى كثير من اللبس فى الســماع ويجعل التسجيل أمرا عسيرا ، ان لم يكن مستحيلا ٠

٢ ــ أنها محدودة بعدد معين من المفـردات، غير قادر على التعبير عن كثير من المعانى التى يمكن أن تجيش بها النفس الانسانية ، وقد أحصى بعض الباحثين هذه المفردات فلم تزد عن بضع مئات ، وما عداها مقترض من العربية ، ولكن المفـــردات فيها مصيبتها أنها جامدة ، أى أن اللفظ لايعبر عن معناه العام فى أى تركيب يدخل فيه ولكنه موظف فى تركيب أو عدة تراكيب محفوظة لايجوز أن يستخدم فى غيرها ٠

٣ ــ اعتمادها على لوازم دلالية زائدة لاتؤدى أى معنى كالباء التى تتصدر الفعل المضارع ، والشين التى تجىء فى أواخر الأفعال المنفية ، فالباء لاتؤدى عملا مع وجود حرف المضارعة فى أول الفعـــل ، والشين لاتؤدى عملا مع وجود أداة النفى ، ومثل هذا عبث ، ينافى أهون مبادىء اللغة والمنطق ٠

٤ ــ أنها تفتقر الى قواعد ثابتة للتراكيب الأسلوبية ، وتعتمد على النبر وطرق الالقاء ، للتفريق بين المراد من التركيب اللغوى اذا أريد به التقرير أو الاستفهام أو غير ذلك ، وهذا يجعل التسجيل والقراءة والفهم عملية صعبة بل وعديمة الجدوى ومثيرة للســـخرية ودافعة الى الملـــل بسبب عسر المعنى على الفهم ٠

٥ ـ أنها لا تجاوز حدودها الاقليمية بسبب اختلاف اللهجات وارتباطها بالبيئة ٠

٦ ـ أنها لعدم امكان تسجيلها وأعتمادها على المدلولات الشائعة في عصرها وأحداث الحياة اليومية ، لاتستطيع اختراق زمانها ، ويستحيل أن تصبح تراثا انسانيا عاما ٠

٧ ـ أنها تسف وتتبذل وترتبط بالقيعان كما بينا ٠

٨ ـ أنها تحوى مزيجا من المفردات لاتجمعها أصول واحدة عربية وتركية وانجليزية وفرنسية وغيرها ، ولاتخضع لقواعد ثابتة فى الاشتقاق ٠

ولهذه الأسباب جميعا لاترى العامية وابداعاتها مهما كانت من الجودة والقبول فى زمانها أو بيئتها ، قادرة على مزاحمة أدب الأمة ذى التراث الذى استقر فى وجدان الأمة بأسرها مدى الزمان وعلى اتساع رقعتها ٠

ولقد عرف دعاة هذا الأدب الشعبى « الفوكلور » هذه الحقائق وغصت منها حلوقهم من قديم ، واستسلموا لها حينا من الدهر وتركوا أدب الأمة وشأنه وقنعوا بمخاطبة العامة فى نطاقهم ، وامتاعهم وتقبل اعجابهم دون أن يحاولوا أن يتخطوا حدودهم لا مكانا ولا زمانا ـ ولم يكن لهذ النوع من النشاط وجود يذكر فى عصر الحضارة الاسلامية الزاهر ، حتى جاء من مرضت نفسه وشحنت من حقيقة كبيرة مثالقة فى سماء هذه الأمة ، وهى أن أدب العرب لاينفصل عن دين الاسلام ، لأن وعاءهما واحد وهو اللغة العربية ، فمن أراد أن يحارب الاسلام ويقضى عليه دون أن يريق دماءه أو دماء المسلمين فعليه بمحاربة العربية والقضاء

عليها ، ولا يتحقق هذا الا بمحاربة كل مجال تستخدم فيه هذه العربية وتحيا ، وعزلها عنه واحلال بديل لها فى مكانه . فبرزت فكرة أن يكون العلم والتعليم بلغة أجنبية هى الانجليزية فى أكثر بلاد العرب ، والفرنسية فى بعضها ، ولم يسلم من هذا الا سورية ، وبرزت فكرة احلال العامية كلغة للكتابة والصحافة والتدوين كما هى لغة للتخاطب ، محل العربية الفصحى ، ورأت أن تستغل هذا النوع من النشاط الانساني الضحل الذى ولد فى عصر غابت فيه الحضارة الراقية وأفل نجمها منذ سقوط بغداد وابان عصرى المماليك والعثمانيين ، وكان بروز الدعوة الى العامية فى عصر بدأت فيه نهضة علمية وأدبية فى القرن الماضى ، بدأ ينحسر أمامها هذا الأدب الفج ، وينزوى ، والتناسب العكسى بين هذين الأدبين حقيقة لا مراء فيها ، فلا مجال لهذه النشاطات الاجتماعية المتخلفة فى حضرة نهضة أدبية زاهرة ، اللهم الا اذا أراد شخص أو جماعة أن يضربوا هذه النهضة ، وأن يجهضوا روح التحضر والتقدم ويسلبوا الأمة روحها الدافعة لها الى الأمام بدوافع مختلفة ظاهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب .

هذا ما وقع فعلا وما نطق به تاريخ بلادنا المنكوبة فى نهضتها وفى أدبها ولغتها ، عنوان حضارتها وأعز ماتملك ، اذ انطلق عدد من المستشرقين فى أرجاء بلاد العرب فى النصف الثانى من القرن الماضى يدعون الى العامية ، ويحاولون بشتى الوسائل امدادها بعناصر القوة والحياة ويتهمون الفصحى باتهامات باطلة ويدعون أنها لغة صعبة معقدة ، ويحاولون اقناع الناطقين بها بأن حل مشكلة التخلف فى بلادهم مرتهن بزوال هذه اللغة ، وتوحد لغة التخاطب مع لغة الكتابة والتدوين ، وضربوا مثلا على هذا بما حدث فى بلاد أوربة ابان عصر

النهضة ، اذ كانت اللاتينية لغة التدوين والأدب فقط ، أما التخـــاطب فكانت له لغات تختلف باختلاف البلاد ، فثار الأوربيون على هذا الوضع من منطلق الدفاع عن قومياتهم المختلفة ، وبدأوا الكتابة الأدبية والتدوين بأشهر اللهجـــات فى كل قطر • وكان أول نص كتب بلغة محلية هـو « كوميدية دانتى » التى كتبت بلهجة أبناء نابولى وذلك فى سنة ١٣٠٧م على وجه التقريب (الأدب المقارن : غنيمى هلال ص ١٤٩) ، ثم جهدت أكثر أقاليم أوربة فى الانفصال عن اللاتينية بترقية لغاتها واثرائها بشتى الوسائل على نحو مافعلت جماعة « الثريا » فى فرنسة ، حتى تم القضاء على اللاتينية ، وأصبحت الآن لغة تاريخية منقـــرضة ، اللهـــم الا من التراتيل الكنسية فى بعض البلاد ، ومن بعض المصطلحـات العلمية ، وهذا القياس بين العربية واللاتينية قياس منقطع ، وتم الرد عليه وبيان خطئه وخطئه ، وليس هنا مجاله •

وقد وصل الأمر بهؤلاء الدعاة الى حد الادعاء بأن لغة مصر وشمال افريقية ليست العربية وانما هى « البونية » ، وكل هذه أمور تم الرد عليها ووأدها اللهم الا ماينعق به بعض غربان التخلف بين حين وآخر •

(تفصيل تاريخ هذه المصائب وما أثارته من مشـكلات وخلفته من آثار ، وردود المدافعين عن العربية عليهم فى : تاريخ الدعوة الى العامية فى مصر : نفوسة زكريا ، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر : محمد محمد حسين جـ ٢ ، أخطـــاء المنهج الغربى الوافد : أنـور الجندى ، حصوننا مهددة من داخلها : محمد محمد حسين ، الاســـلام والحضارة الغربية : محمد محمد حسين ، دراسات أدبية : يوسف الشـــارونى ، أباطيل وأسمار : محمود شاكر جـ ١ ، ٢ ، مشـكلات اللغة العربية .

محمود تيمور ، قضايا النص المسرحى المعاصر بمصر لكاتب هذه الدراسة « الفصل الثانى بأكمله » ، ومراجعه) ٠

ولكن أخطر مابقى من آثار الدعوة ، وهو ماض فى سبيله متخطيا كثيرا من العقبات وبعزم لايفتر ، هو تلك المحاولات المستميتة فى سبيل امداد العامية أو العاميات العربية بتراث مكتوب ، من أجل حفظ حياتها وشيوعها ، والتجرد من بعض عيوبها ، لتطاول الفصحى أملا فى أن تحل محلها فى يوم من الأيام ، وهذا التراث المكتوب هو مايطلق عليه عرفا أو اصطلاحا اسم (الأدب الشعبى) ٠

وقد بدأت هذه المحاولات فى القرن الماضى ، بالدعوة التى وجهها المستشرق الانجليزى وليم ويلكوكس الذى كان يعمل فى مصر فى وظيفة رسمية فى دار الكتب الخديوية ، ويمارس نشاطه المشبوه ودراساته من خلال بعض الصحف والمجلات ، منها مجلة تسمى « الأزهر » (لا صلة لها بالأزهر الشريف ولا مايصدر عنه من مطبوعات) وهى التى دعا فيها مرات الى ترجمة بعض النصوص من الآداب الأجنبية الى العامية المصرية أو من الفصحى الى العامية ، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل انه قد رصد المكافآت لمن يوافيه بهذه الترجمات لينشرها فى مجلته ٠ (تاريخ الدعوة الى العامية لنفوسة زكريا ص ٣١ ـ ٧٠) ٠

ومن بعد نرى أن ترجمة الانجيل تخرج بالعامية ثم ينشط بعض المؤلفين من أبناء البلاد لاخراج نصوص مترجمة أو من ابداعهم بالعامية، أمثال محمد عثمان جلال ومحمد تيمور ، ثم تستشرى العدوى وتبدأ قضية العامية والفصحى فى أوائل القرن العشرين الميلادى تفرض نفسها على الساحة ليتناولها عشرات من الكتاب الذين تضاربت آراؤهم ما بين

مؤيد لهذه أو تلك ، وينشط عشرات من الدارسين فى اخراج عدد من النصوص المهجورة من عصرى المماليك والعثمانيين كالسير والليالى والبابات ، والامعان فى تشويهها وفصلها عن الفصحى ، غير ناظرين الى أخطاء الكتاب أو النساخ ، على خلاف عمل المحقق الذى من حقه أن يجرد النص الذى يقوم بتحقيقه من مثل هذه الأخطاء غير أن هؤلاء كانوا يستغلون خاصية جهل النساخ أو تساهلهم فى أمر التدوين والنسخ ، ليثبتوا النص على صورة مشوهة . ليحق لهم بذلك أن ينسبوه الى ما يسمى بالأدب الشعبى وليقربوه الى العامية التى هى فى أمس الحاجة الى نصوص مكتوبة تقف بها على قدميها .

والذى يضاهى بين نسخ ألف ليلة التى طبعت على علاتها نقلا من المخطوطة مباشرة وبين بعض النسخ التى قام بنشرها بعض المستشرقين أو قام على « تحقيقها » بعض المحققين ، يعجب من تعمد التشويه فى النص الذى لامزيد عليه فى التدليل على أن هؤلاء يريدون أن ينتزعوا هذا النص من أدب العربية انتزاعا لينسبوه الىَ مايسمى بالأدب الشعبى .

وتحت يدى عدة طبعات من الليالى ، منها واحدة طبعت سنة ١٣٢٥ بمطبعة التقدم بمصر على نسخة بولاق التى طبعت سنة ١٢٨٠ وقام بتصحيحها الشيخ قطة العدوى الذى تظهر دقته ونزاهته فى عشرات من الكتب التى قام على تصحيح طبعاتها فى ذلك الزمان ، وأخرى طبعت فى برسلاو سنة ١٨٢٤ باشراف « مكسيميليا نوس بن هابخط ؟ » معلم اللغة العربية فى المدرسة الملكية فى برسلاو ، وأعيد نشرها تباعا فى مجلة التراث الشعبى العراقية بتحقيق (! ؟) عبد الصاحب العقابى ، وسوف أضاهى بين ما نشره قطة العدوى وما نشره مكسيميليا نوس من

الليالى من خلال نص واحد من قصة « حسن البصرى وجزاير الواق الواق» التى جاءت فى الطبعة المصرية تحت عنوان (حكاية حسن الصائغ البصرى) ٠

وهذا النص من أوائل القصة ،من طبعة مكسيميليا نوس (التراث الشعبى ع : ٥ سنة ١٩٨٣م ص ٣٤٠) : لقى حسن الأعجمى الذى أوهمه أنه سيعلمه كيمياء الذهب ، وذهبا الى بيت حسن ٠

فقام حسن وأخرج طاسة من البيت وقطعها بالكاز ودوها فى البودقة فصارت سبيكة ذهب أحمر خالص ، فلما نظر ذلك فرح فرحا شديدا وبقى متحيرا فى دهشة ، وان حسن لما اشتغل برفع السبيكة أخرج العجمى من رأسه صرة فيها بنج اقريطشى لوشمها الفيل رقد من الليل الى الليل وحط فى قطعة حلاوة شىء يسير وقال له :

انت ياحسن صرت ولدى وأعز من روحى التى بين جنبى وعندى بنت لم رأت الراوون صفتها من حسن وجمال ، وقد واعتدال ، ورأيتك ماتصلح الا لها ، وهى لاتصلح الا لك ، وان شاء الله نزوجك بها ٠

فقال حسن :

ياسيدى أنا عبدك مهما فعلته معى كان لله تعالى ٠٠٠

فقال العجمى :

أكريلى يا ولدى طول روحك يحصل لك الخير ٠٠

ثم ناوله الحلاوة المبنجة فأخذها وقبل يده ، ووضعها ثم فيه وما يعلم ما حبى له فى الغيب ، وصاحب الغيب يعلم الغيب كيف يشاء ثم بلع قطعة الحلاوة فسبقت رأسه رجليه ٠

فلما رآه العجمى وقد حل به البلا فرح فرحا شديدا وقام قايما على قدميه وقال :

وقعت فيك يا كلب العرب ، فى سنتين أدور عليك حتى حصلتك ،

وقـــال : (؟)

ثم ان العجمى شد وســـطه وكتفيه وربط رجليه مع نيريه وأخذ صندوق ووضع حسن فيه وأخذ السبايك الذهب حطهـم فى صـــندوق ثانى وقفلهم ثم خرج يجرى الى السوق وأحضر حمالين فشالوا الصناديق وخرج بهم الى ظاهر المدينة حطهم على ســـاحل البحر وتقدم الى مركب بجانب الصناديق ، وكانت للعجمى معينة والرايس فى انتظار العجمى • فلما نظره الرايس والنواتية أتوا اليه وحملوا الصندوقين ووضعوهم فى المركب وصرخ العجمى على الرايس وقال له :

سر بنا قضينا الحاجة ، وبلغنا المراد ! •

فصرخ الرايس على الرجال وحلوا القلاع وسارت المركب فى الحال بريح طيب •

هذا ما كان من أمر العجمى مع حسن •• وأما ما كان من حـديث ام حسن فانها انتظرت ولدها الى العشا فلم تسمع له حس فجـــات الى البيت فوجدته مفتوحا فدخلت فلم تجد أحدا فيه ورأت قد فقد من البيت صندوقين والمال فعلمت أن ولدها فقد ونفذ فيه سهم القضا •

قـــال : (؟) •

فلطمت على وجهها وشقت أثوابها وصاحت وولولت وتقول :

يا ولداه يا ثمرة الفؤاد ••• آه • ثم أنشدت وجعلت تقول هذه الابيات النفيسة شعر •

وها هو ذا النص نفسه من طبعات بولاق والتقدم وبيروت :

وأخرج طاسة من البيت وقطعها وألقاها فى البودقة ورمى عليهـا قليلا من الذى فى الورقة فصارت سبيكة من الذهب الخالص فلما رأى

حسن ذلك فرح فرحا شديدا وصار متحيرا في عقله مشغولا بتلك السبيكة فأخرج الاعجمى صرة من رأسه بسرعة وقطعها ووضعها فى قطعة من الحلوى وقال له ياحسن أنت بقيت ولدى وصرت عندى أعز من روحى ومالى وعندى بنت أزوجك بها ، فقال حسن أنا غلامك ومهما فعلته معى كان عند الله تعالى ، فقال الاعجمى : يا ولدى طول بالك وصبر نفسك يحصل لك الخير ثم ناوله القطعة الحلوى فأخذها وقبل يده ووضعها فى فمه وهو لا يعلم ماقدر له فى الغيب ثم بلع القطعة الحلوى فسبقت رأسه رجليه وغاب عن الدنيا فلما رآه الاعجمى وقد حل به البلاء فرح فرحا شديدا وقام على أقدامه وقال وقعت يا (كلمة نابية) ياكلب العرب لى أعوام كثيرة أفتش عليك حتى حصلتك ياحسن ، ثم ان الاعجمى شد وسطه وكتف حسنا وربط رجليه على يديه وأخذ صندوقا وأخرج منه الحوائج التى كانت فيه ووضع حسنا فيه وقفله عليه وفرغ صندوقا آخر وحط فيه جميع المال الذى عند حسن والسبائك الذهب التى عملها أولا وثانيا وقفله ثم خرج يجرى الى السوق وأحضر حمالا حمل الصندوقين وتقدم الى المركب الراسية وكانت تلك المركب مهيأة للأعجمى وريسها منتظره فلما نظرته بحريتها أتوا اليه وحملوا الصندوقين ووضعوهما فى المركب وصرخ الاعجمى على الريس وعلى جميع البحرية وقال لهم قوموا قد انقضت الحاجة وبلغنا المراد فصرخ الريس على البحرية وقال لهم اقلعوا المراسى وحلوا القلوع وسارت المركب بريح طيبة هذا ما كان من أمر الاعجمى (وأما) ما كان من أمر أم حسن فانها انتظرته الى العشاء فلم تسمع له صوتا ولا خبرا جملة كافية فجاءت الى البيت فرأته مفتوحا ولم تر فيه أحدا ولم تجد الصناديق ولا المال فعرفت أن ولدها قد فقد ونفذ فيه القضاء فلطمت

وجهها وشقت أثوابها وصاحت وولولت وصارت تقول واولداه واثمرة فؤاداه ثم أنشدت هاه الأبيات » .

هذان النصان تتضح فيهما ظواهر عدة أهمها :

١ ـ تعمد تشويه النص الأول (طبعة برسلاو) فى مفرداته وأساليبه حتى يصبح كالعامى .

٢ ـ عدم اتساق الأسلوب فيه نظرا للتفاوت الكبير الذى بين الألفاظ المشوهة والعبارات المشوهة ، والألفاظ والعبارات التى تركت على أصلها ، الأمر الذى يفضح تلك المحاولة الساذجة للنيل من عروبة النص واتساقه .

٣ ـ أن الذى قام بالتشويه جاهل بخصائص اللهجة التى ينقل النص اليها فيخلط بين اللهجات أو يأتى بألفاظ ليست فى واحدة منها ، ولا مما ينطقه العوام .

٤ ـ أن النص الثانى جاءت بعض عباراته ركيكة ولكنه مع هذا متسق وليس فيه تفاوت أو تصنع أو تشويه ، ولو كان أحد قد عبث به ليرقى بأسلوبه ماترك فيه شيئا من العبارات الركيكة أو الألفاظ النابية أو الأخطاء ، ولأصلحه كله .

وأذكر أنى رجعت الى بعض مخطوطات الليالى فى دار الكتب المصرية منذ سنوات فوجدت فيها تسفلا خلقيا واسفافا فى بعض المواضع ، ولكنى ما وجدتها عامية ولا فيها شىء من هذا التسفل الاسلوبى المتعمد الذى فى طبعة برسلاو ، ولا أدرى من أين أتوا به ، بل على العكس ، انى قد وجدت فيها عبارات مصنوعة من أجود الوصف ، الذى يتسم بسمة عصر المماليك والذى بعده ، وهى الزخرفة اللفظية الفاقعة ، ولا بأس بسوق شىء من ذلك من قصة حسن الصائغ نفسها لنرى هل

يتفق ذلك من عامى أو من أديب شعبى (حكـاواتى) ؟ أو أنه نمـوذج لأدب عصره ، بل من أرقى هذا الأدب ، والوصف التالى يذكرنا بمـا يقدم به الشراح لمعلقة امرىء القيس وما جرى له من عنيزة وصويحباتها يوم اغتسلن وهو يراهن (يوم دارة جلجل) فحسن الصائغ رأى الجنيات وهن يغتسلن ، وهاك وصف ما رأى :

« ثم ان البنات لما لبسن ثيـابهن جلسن يتحدثن ويتضـاحكن ، وحسن واقف ينظر اليهن وهو غريق فى بحـر عشقه وتائه فى وادى فكره وهو يقول فى نفسـه : والله ما قالت لى أختى لا تفتح هـذا الباب الا من شأن هؤلاء البنات وخوفا من أن أتعلق بأحداهن ثم انه صـار ينظر فى محاسن هذه الجارية وكانت أجمـل ماخلق الله فى وقتهـا وقد فاقت بحسنها جميع البشر لها فم كأنه خاتم سليمان وشعر أسـود من ليل الصدود على الكئيب الولهان وغرة كهلال عيد رمضان وعيون تحاكى عيون الغزلان وأنف أقنى كثير اللمعان وخدان كأنهمـا شـقائق النعمان وشفتان كأنهما مرجان وأسنان كأنها لؤلؤ منظوم فى قلائد العقيان وعنق كسبيكة فضة فوق قامة كغصن البان وبطن طيات وأركان ، يبتهل فيها العاشق الولهان ... الخ » .

فهذا الوصف اذا تغاضينا عن أخطائه اللغوية ، هو نموذج صادق ودقيق فى دلالته على أدب عصره كما قدمنا . ولو كانت تلك النصوص عامية على هذا النحو المفترى لما جاز أن يكون فيها نص كهذا ، وما جاز أيضا أن يضمن فيها شىء من روائـع الشـعر العربى الذى حفلت به الليالى وستأتى نماذج منه بعد ، فى وقفتنا التالية مع الليالى .

والحاصل من هذا العرض أنه يؤكد لنا أن هناك من يتعمد تشويه

نصوص الأدب أو يستغل ضعف النص من جهة اللغة ومرض الخيال ، ليسرقه من أدب عصره ، ويضمه الى مايسمى بالأدب الشعبى ويلحق به ، اثراء له على حساب أدب العربية ٠

ومن أجل هذه الغاية أيضا نشطت أنواع أدبية نشأت فى عصر الضعف وعلى رأسها الأزجال العامية ، وأصبح لها رجالها الذين يهضبون بها فى كل واد ليغطوا على شعر العربية الذى كان قد بعث من جديد وليخرسوا تلك الألسنة التى تلهج به ، وليصموا الآذان التى تستشرف لسماعه ، والقلوب التى تتعلق به ويعلق بها ٠

ومن أجل هذه الغاية أيضا استخدمت نظرية (لغة الشعب التى ينبغى أن تحترم) وهى من الاسقاطات الماركسية على الأدب (انظر آراء محمد مندور فى مجلة الكاتب ع ٩ ـ ديسمبر ١٩٦١م ، ورد محمد غنيمى هلال عليه فى : الكاتب ع ١٠ ـ يناير سنة ١٩٦٢ م ، كتاب المسرح النثرى لمحمد مندور) وقد اتهمت هذه النظرية وأصحابها الفصحى بأنها لغة متعالية ، تستخدمها طبقة معزولة عن الجماهير الكادحة ولاتعبر عن حاجاتها ، أما آلام الطبقة الكادحة وأحلامها وتطلعاتها وهى السواد الأعظم من الشعب فهى تظهر فى أدب العامية التى بها يفكرون ويعبرون ويتخاطبون ويبدعون ، ومنهم من اتهم العربية بأنها كانت دائما لغة بلاطات الملوك ، وقد قمنا بدحض هذا الاتهام فى دراسة سابقة بعنوان (قضية الفن الأول) ٠

وقد ظن كثير من الجهلاء الذين تواروا وراء نظرية لغة الشعب متظاهرين بأنهم انما ينزلون الى مستوى الجماهير لتعى مايقولون ، وليعيشوا معها مشاعرها ، ظنوا أن الساحة قد خلت لهم ، وأن القضية

حسمت ، بعد أن أعملوا الحيلة ليقضوا على أدب الأمة ، فأطلقوا عليه اسم الأدب الرسمى أو الأدب الراقى أو الادب المعتبر أو الأدب المدون أو المسجل ، ليوحوا بأمرين :

الأول : أن هناك نوعين من الأدب : أدب رسمى ، وأدب شعبى ٠

الثانى : أن تلصق بأدب الأمة تهمة أنه أدب طبقة من طبقات المجتمع ارتبط تاريخها بالعسف والتسلط والظلم والاستيلاء على ثروة الأمة ٠

وكلا هذين الأمرين كفيل بعزل الأدب وتوليد النفور منه لدى عامة الشعب ، بل ان هذه الطبقة نفسها ، حتى وان كانت بعيدة أصلا عن الأدب ، فانها ستحاول أن تدفع عن نفسها هذه التهمة بالانحياز للأدب الشعبى ، ومحاربة أدب الأمة والتنكر له ، وبهذا يقع الأدب المظلوم بين فكى الرحى ولا يبقى له من ينصره ٠

وقد مكن هذا أنصار العامية والأدب الشعبى من احتلال وسائل الاعلام التى جادت بها المدنية الحديثة ، تحت ضغط الارهاب ، وخوف المسئولين عنها والسلطات المختلفة من سخط الجماهير ، وأوهموهم بأن هذا هو الأدب وأن هذه هى اللغة ، وأن ما عداها قد دخل متاحف التاريخ ، واستقطبوا حولهم كل نفس مريضة ، وتمكنوا من الساحات الرفيعة وافترشوها ، وأفرخوا فيها ، حتى وجدنا اذاعة تخرج علينا كل صباح ، وكل أصيل بكلمات (غمض عنيك ، وامشى بخفة ودلع الدنيا هى الشبة وأنت الجدع ، تشوف رشاقة خطوتك تعجبك ، لكن أنت لو بصيت لرجليها تقع ٠٠ عجبى !) ومضت سنوات طوال قبل أن يتنبه مسئول من المسئولين الى هذه الكلمات ولما تنبه هاج وماج ، وأرغى وأزبد ، وهدد وتوعد . وأمر بتغيير هذه الكلمات التى لايصح

أن تطلقها اذاعة ذات شأن ، وفعـــلا حدث التغيير ، وانطلقت الكلمات الجديدة ، كل صباح وكل أصيل ولسنوات طوال ، الى الآن مع تغيير كلمة (رجليها) الى (رجليك) وهو تغيير جوهرى فى رأيهم ! .

وهذا قليل من كثير من محـــاولات عزل العـــربية وتشويهها فى وسائل الاعلام ، كابطال الاعراب فى كثير من الأحاديث الاذاعية والمرئية والنشرات الاخبارية عمدا ، بل واستعمال العامية فى كثير من المجالات.

وقد بلغ استشراء هذا الداء فى فنى المسرحية والقصة أشده ،فقد تخصص السواد الاعظم من كتاب المسرح ، فى كتابة المسرحية العـامية ففتحت لهم الأبواب على مصاريعها ، أما القلة التى ظلت تكتب بالفصحى فقد حبست وضيق عليها وصارت لاتنفذ الى عالم النشر ودنيـا التمثيل والعرض الا فى القليل النـادر ، ولا ينفذ الى هذا الا من كانت له متعـة وسطوة أما من لاحول له ولاقوة ، فقد كان يؤمر بان (يترجم) نصه الى العامية، والا فلا (وقد أفضنا فى الحديث عن هذا مدعوما بالأمثلة فى دراستنا (قضايا النص المسرحى المعاصر ـ رسـالة عالمية ـ كلية اللغة العربية ـ القاهرة سنة ١٤٠٢هـ) ولم ينج من هذا الطوفان الا المسرح التاريخى والمسرح المترجم ، حيث ارتضى لهما المؤلفون والنقاد أن يعرض باللغة التى تناسب الجو التاريخى أو التى تحكى حال النـاطقين باللغة التى ترجم عنها هذا النص ، والحجة فى هذا أن النصـوص التى تحكى واقع الأمة لابد أن تتحدث بلسانها فالمسرحية الاجتمـاعية لابد لها من العامية ، وقد رد على هذا باعتراضات كثيرة أهمها أن لغة المسرحية تحكى لسان الحال الذى يكون عليه أشخاصها لا لسان المقال الذى ينطقون به ولكن هذه الاعتراضـات ذهبت أدراج الرياح ، وضـاعت فى خضـم الطـوفان وفى السـنوات الأخيرة بدأ يتسرب داء العاميه الى هـذين

المجالين ، وبدأ عرض بعض المسرح التاريخى بالعـــامية وكذلك المسرح المترجم ٠

أما القصة فأكثر الكتاب بحمد الله مازالوا يعتمدون الفصحى لغة لها بصرف النظر عن المضامين ، ومنهم من استعمل العـامية فى الحوار اذا كان ثمة حوار ، أما السرد فقد أســـتأسرت به الفصـــحى ، وندر من الكتاب من استعمل فيه العامية ٠

ولكن ويا للأسف نجد أن كل مايعرض فى المسـموع والمرئى من وسائل الاعلام تطغى عليه العامية ولا يبقى للفصحى الا بعض الروايات المتشنجة المتشحة بالسواد التى يسمونها تاريخية أو اسلامية ٠

★ ★ ★

ان دعاة العامية هم أنفسهم دعاة الأدب الشعبى ، وهم يعلمون فى قرارة أنفسهم أن القول بأن الأدب الشعبى غير الأدب العامى باطل وأنهم حينما وصفوا الأدب الشعبى وعرفوه تجاهلوا عمدا مسألة اللغة وجعلوا السمة الرئيسة لهذا الأدب هى انطلاقه من روح الشعب لا من قبل ذات المؤلف ، واتســامه بالنزعة الانســانية العامة لا النزعة الفردية ، ولكنا نرى أن هذا غير صحيح ، وهم يعلمون أن هذا التعريف ليس دقيقـــا ولا جامعا ولا مانعا ، ومن الممكن أن ينطبق على آلاف من النصوص الأدبية التى تدخل فى نطاق الأدب ، ومع هذا لم يستطع هؤلاء أن يضموها الى حظيرة ما يسمونه بالأدب الشعبى أو التراث الشعبى ، والحائل الوحيد دون هذا هو أن هذه النصوص كتبت بالفصحى ، وكتب الأدب العـربى زاخرة بهـذه النصـوص من شعر ونثر ، بل ان النص الواحـد يرد فى كتاب من كتب الأدب مع نظائر كثيرة له فـــلا يعـد شيء من ذلك أدبا شعبيا ، ثم نراه يدخل كتابا كألف ليلة وليلة فاذا به يضم الى حظيرة

الأدب الشعبى ، ولا فارق بين وضعه فى الحالتين الا أنه قد حرف أو شوه لغة وأسلوبا ، مثل قصة الشاب الذى تزوج تهرمانة زبيدة أم الأمين التى وردت فى ثنايا قصة الخياط والأحداب واليهودى والنصرانى مع ملك الصين ، فهذه القصة وردت فى نهاية الأرب (ج ٢ ص ١٦٥ - ١٧٣) فيما رواه عمن خاطر بنفسه فى هواه وعرضها للتلف فنجا ونال خيرا ، عن ابن الجوزى بسند يرفعه الى أبى الفرج أحمد بن عثمان ابن ابراهيم الفقيه ، المعروف بابن الترسى ، ولا خلاف بين القصتين الا فى بعض المفردات والتفصيلات التى لاتؤثر فى مجرى الحدث أو فى حبكة القصة ، فالأحداث عند النويرى تجرى فى زمن الخليفة المقتدر العباسى ، والقهرمانة لأمه ، أما فى الليالى فتجرى فى زمن هارون ، وهذا شائع فى ألف ليلة وليلة ، لما للرشيد من ظل فى نفوس الناس ، ولما لزمنه من سحر ، وتبعا لذلك فالجارية لزبيدة والأحداث تجرى فى قصرها ، وقد أحسن القاص تضمين هذه القصة فى ثنايا قصته حتى بدت كأنها منها .

وهناك كثير من مثل هذه القصص فى الليالى وغيرها بالاضافة الى الحوادث العرضية كقصة الجوارى المتفقهات التى أدخلت فى قصة الملك النعمان . فقد حوت كثيرا من الآثار والحكم الاسلامية والعربية والأحكام الفقهية وقصص الزهاد والعباد والمجاهدين ، كبشر الحافى وقصة أخته مع الامام أحمد بن حنبل ، وقد أوردها الامام الأكبر عبد الحليم محمود فى كتابه (المحدث الثقة بشر بن الحارث الحافى ص ٩١ - ٩٢) وكعمر بن عبد العزيز ، والامام الشافعى ، والقاضى أبى يوسف وغيرهم وأكثر هذه الأخبار تضمن فى القصص بطرق مختلفة ، ضمنها ما يتناسب مع المقام ، ومجرى أحداث القصة ، ومنها مايقحم عليها اقحاما للاطالة

أو لعرض معارف القاص ، وقد تكثر فى بعض نسخ الليالى ، وتقل فى بعضها أو لاتوجد .

أما أشعار الليالى ، فعلى الرغم من أن بعضها ركيك أو مصنوع فان فيها كثيرا من الأشعار العربية الأصيلة التى ترتد الى عصور مختلفة ، من الجاهلية الى نهاية العصر العباسى الأخير ، والكثرة الكاثرة منها لشعراء العصر المملوكى ، أو صنعت فى ذلك العصر ، وأتسمت بما اتسم به من الصنعة والتكلف والحرص على البديع ، وبعض هذه الأشعار من عيون الشعر كنونية ابن زيدون التى وردت أبيات منها فى قصة على نور الدين مع هارون الرشيد . وبعض هذه الأشعار من الشعر الجاهلى أيضا ، كهذين البيتين للمثقب العبدى ، وهو من شعراء المفضليات ، ووصف بأنه : جاهلى قديم فحل ، وقد وردا فى آخر الليالى فى ختام قصة الملك معروف :

وما أدرى اذا يممت أمرا ... أريد الخير أيهما يلينى

أألخير الذى أنا أبتغيه ... أم الشر الذى هو يبتغينى

(ديوانه بتحقيق الصيرفى ص ٢١٢ ، المفضليات ص ٢٩٢) .

مع تغيير فى بعض المفردات ، ووضع هل بدل الهمزة فى صدر البيت الثانى ، وهو خطأ شائع .

وبعضها من الشواهد البلاغية المشهورة كقول ذى الرمة :

لها بشر مثل الحرير ومنطق ... رخيم الحواشى لا هراء ولا نزر

وعينان قال الله كونا فكانتا ... فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

ولكن القـــاص يزيد عليهما بيتين ليسا من القصيدة وهـذا من الشائع أيضا فى أشعار الليالى . وكل هذا ليس مما يجعل كتابا كهذا يخرج من باب الأدب ، فقـد وقع التضـمين والاقتبـاس . ووقع الخلط والحشو والنقص ، واختلاف الروايات ووقعت أخطاء النساخ والتحريف والخطأ فى بعض ماتحت أيدينـــا من التـــراث الأدبى والعلمى ، وفى الجليل منه ، كالاسرائيليات فى كتب التفسير والحـديث والتـاريخ ، ولم يهون ذلك من قيمتها العلمية أو يخرجهـا من باب الأدب ، الا فى هذه الحالة الفريدة التى تعمد بعضهم فيها تحريف النص ، أو استغلوا مافيه من عيب ، من أجل أن يخرجوه من دنيـــا الأدب الى ما يســـمى بالتراث الشعبى ، مع تعمد اغفـــال مسألة اللهجة العـــامية والاكتفاء باضطراب النص أو ضعة مضامينه وركاكة أساليبه ، دليلا على أنه ليس من الأدب . وقد اشترط بعض دارسى الأدب الشعبى فى النص أن يكون دارج الأسلوب وعد هذا الأدب خلاصة العامية ، فكان صادقا فى هذا مع نفسه ، لولا أنه رأى أن بعض النصوص « الشعبية » من وجهة نظره ، ليست عامية فاعتذر عن ذلك مغادرا هذا الصدق قائلا . « واذا بدا لنا أن أسلوب بعض النماذج يقرب من الفصحى . كأسلوب ألف ليلة ، فانه فى مجموعه وفى خصائصه ، ليس أســـلوبا فصيحا ـ يقصـد عربيته لا بلاغته ـ وانما هو أقرب الى أسلوب المتفاصحين من العامة . (رشدى صالح : الفنون الشعبية ص ٢٨ ، ٢٩) وهذا ما لايقـــره عليه أحـد ، حيث ان أساليب الليـــالى والسير ، عربية فصيحة . وليس فيهـا من العـــامية الا قليل ، أقل القليل ، وهـو مايتبدى لأى ناظـر فى هـذه النصوص دون حاجة منا الى اسـتقراء هـذه النصـوص أو حتى عرض نماذج منها ، ويكفينا من رشدى صالح أنه نص على أن العامية أسـاس

فى الأدب الشعبى ، وهو ماذهبنا اليه من رأى وأثبتناه ، من أن السمة الأولى لما يسمى بالأدب الشعبى هى أن لغته العامية .

أما لماذا لايريد أصحاب هذا النشاط الشعبى أن يضموا اليه الأدب العامى مع حاجتهم الشديدة الى النصوص المكتوبة ؟ فهذا يرجع الى أمرين :

أولهما : أن هذا الأدب يفتقر الى سمات أخرى وضعوها للأدب الشعبى ليزيدوا فى قدره ويعززوا مكانته كشرط أن يكون النص مجهول المؤلف ، ليتأكد لديهم أنه قد مر بمراحل تطور متعددة على ألسنة رواده ورواته ، بحيث يتوافر له التعبير عن وجدان أمة ، وتظهر فيه النزعة الانسانية العامة وتتكشف ! .

أما الثانى : فهو أنهم لو اعترفوا بأن الأدب العامى كالمسرح والقصص والتمثيليات وغيرها أدب شعبى ، لظل أدب الفصحى هو « الأدب الرسمى » وظل هذا الأدب معبرا عن وجهه نظر الأمة (الرسمية) المدونة ، وسقط كل كتاب الأدب العامى فى حظيرة الأدب الشعبى وخرجوا من معركة احتلال الساحة فى مواجهة الأدب العربى الذى يريدون القضاء عليه واحلال العامى محله .

لهذا قسموا الأدب الشعبى قسمين : شعبى ، وعامى ، والعامى هو الرسمى ، ليحاربوا بهما جبهتين ، الغاية منها فى النهاية واحدة ، فالأدب الشعبى فى جبهته ينتزع نصوصا من التراث والبيئة المحلية ، وينشرها ويسمعها الناس ليظلوا مرتبطين بها وجدانيا وثقافيا ، ولا يجاوزوها الى آفاق الأدب العربى الفسيحة . والأدب العامى يخوض معركته ضد الأدب العربى مباشرة ليحل محله ويشغل مجالاته . لتنزوى

الفصحى فى اطار الكتابات العلمية والرسمية ونشرات الأخبـــار وكتب التاريخ مؤقتا حتى ترفع منها عندما تصبح غير مفهومة للسـواد الأعظ من الناس فى وقت وأمد معلـــوم ، وعلى هذه الصعيد تنتظـر الفصحى معركة أخرى ، لاعلى مستوى الابداع الأدبى ، ولكن على مستوى التعليم والادارة والمكاتب الرسمية كما أوصى سابقا رواد الدعوة ففى التعليـم زاد انتشار المدارس الاجنبية التى تنـزوى فيها الفصـــحى لتصبح هى (الأجنبية) التى تدرس كلغـة ، وســـائر المواد يدرس بالأجنبيـة من انجليزية أو فرنسـية أو المـانية ، وفى البنوك تحولت معظم المـكاتبات والحسابات الى الانجليزية ، وفى أقسام الشرطة مثلا تكتب « المحاضر » بالعامية المسفة ... الخ ! .

فكون الأدب العامى خارج ساحة الأدب الشعبى خدمة كبيرة لقضية العامية فى مواجهة الفصحى التى يخططون لعزلها ، فالأدب الرسمى فى نظرهم الآن هو ذلك الأدب العامى من مسرحيات كثيرة وقصص وأزجال وبهذا لايصبح أدب طبقة ممقوتة كما كان سابقة فى نظرهم ، وقياسـا على هذا أيضا مايسمى بالشعر الجديد والحر الذى يخـوض معـركته بجانب الزجل ، ليحلا محل شعرنا العربى التقليدى الذى خططوا لعزله هو الآخر ، فان قال قائل : ان أكثر الشعر الحر والجديد فصيح ،وهو يشارك فى الابقاء على الفصحى ويزودها بتراث مكتوب ، أجبناه بأن مثل هذا النوع من النثر المشعور له دور فى عزل الفصحى ، فهو مرحلة على طريق مسخ الشعر العربى واخراجه من دائـرة الشـعور والتذوق لدى جمهور الشعر ، فاذا فقد تراثنا الشعرى متذوقيه وأصبح فـــا ميتا ، فقدت العربية أعظم مخزون بعد القـــرآن الكريم تعتـز به وتنتصر فى مواجهة أعدائها ، الذين سيسهل عليهـم عندئذ القضـــاء عليها كمـــا يحلمون ويتمنون .

ومن جهة أخرى حوصرت العربية بطائفة من الفنون المستوردة ، وعلى رأسها « الأوبرا » التى أفهم الناس زورا وبهتانا أنها لابد أن تكون بلغة أجنبية (الايطالية غالبا) ، وأنه لايمكن أن تكون هناك أوبر عربية (راجع مقالات عبد العظيم رمضان فى مجلة أكتوبر الاعداد ٦٢٨ ، ٦٣٨ ، ٦٤١ ، ٦٤٣ ، سنة ١٩٨٨ ، ١٩٨٩م) وأحيطت هذه الأوبرا بهالة من الفخامة والاجلال الى درجة أنهم يمنعون من لايرتدى ملابس سهرة كاملة من دخولها ، مع اشتراط ربطة العنق ، وكأنها « تذكرة » أخرى مع « تذكرة » الدخول ! وذلك من أجل أفهام الناس أنها فن رفيع ، وأن من لايتذوق هذا الفن جاهل ولاينبغى أن يعيش فى مجتمع متحضر فى القرن العشرين ، ولاشك أن هذا الفهم سيدعو كثيرا من الجماهير الى التطلع الى الانتقال الى مستوى وثقافة ولغة أخرى غير ثقافتهم ولغتهم وبيئتهم من أجل أن يصبحوا عصريين ، ومتحضرين ! .

ومما هو جدير بالذكر أنه قبل مثول هذه الدراسة للطباعة صدر بيان مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة يدين كل هذه المظاهر ويوصى المسئولين والغيورين باتخاذ التدابير اللازمة لمنع تفاقمها ، مدفع عن نفسه كثيرا مما وجه اليه من اتهامات ، وأثير حوله من شبهات ، ونحن نضم صوتنا اليه فى المطالبة بذلك ونهيب بكل انسان من أبناء هذه الأمة ألا يتهاون فى شأن لغته وأدبها ، كل فى مجاله (الأهرام : ١٢ شعبان سنة ١٤٠٩هـ ص ١٢) .

هكذا أحكم الحصار على العربية من كل جانب من أجل عزلها ، والذى يهمنا الآن هو الرد على دعاة العامية والأدب الشعبى ، اللذين نرى أنهما واحد لا اثنان كما بينا ، مطمئنين اياهم الى أن كل مسعى لهم مصيره ومآله الفشل ، على غير مايتمنون وان بدا لهم غير ذلك لسبب

بسيط . وهو أن أدب العامية والنشاط المسمى بالشعبى مهما أوتى من العبقرية ، التى نقر بأنه كأى نشاط انسانى لايخلو من شىء منها ومن ابداع من نـوع ما ودرجة ما ، ومهمـــا أوتى من قدرة على التعبـير تثير الدهشة والعجب أحيـــانا ، فانه مرتبط بعنصرين ومتســـم بسمتين لاتبارحانه ، وهما ســـمتان محدودتان الى درجة بشعة ومخيفة ومثيرة للرثاء ، وهمـــا يضيقان عليه الخناق ويقضيان عليه بالزوال المحتـــم والسريع ، وهما :

العنصر المكانى : حيث ان النشاط الشعبى الذى يلصق به صفة الانسانية العامة ليس من العموم فى شىء ، فهو نشاط محصور فى بيئته ومواضعاتها وعاداتها ونظام حياتها اليومى ، بل بأبسط ما يجرى فيهـا من أحداث .

والعنصر الزمانى : حيث انه مرتبط ايضـــا بعصره بل بيـومه ، وعادات الناس فى هذا العصر ولهجته وأحداث حاضرهم .

وهذا يعنى أن هذا النص اذا ما غادر بيئته الى بيئة أخرى أو طعن فى الزمان وانتقل الى التالى من الأجيال ، لفقد أكثر ســـمات عبقريته وابداعه ، بل انه سيعسر فهمه فى الأعم الأغلب .

ان كثرة اللهجات العربية لأمر يدعو الى أشد الحذر فى التعـامل مع أى منها كأداة تعبيرية لأدب عربى يخاطب كل الناطقين بالعـربية فى عصر واحد أو فى أعصر متعددة ، وليس شيوع اللهجة القـــاهرية فى الوقت الحاضر شفيعا لها فى شىء من ذلك ، فهى كسائر اللهجات سريعة التحول بالأخذ والطرح ، وهى مليئة بالعيوب ، وعلى الرغم من أن كل اللهجات العربية تشـــترك معا فى أنها بنات للعربية الفصـــحى ، وعالة

عليها ، فان فروقا بينها دائمة التذبذب بالزيادة والنقصان بسبب أن أهل كل اقليم يأخذون من العربية ما يوافق طباعهم وبيئتهم وطرائق نطقهم ، فتجد الشيء الواحد يعبر عنه بكلمة عربية هنا وكلمة عربية أخرى هناك ، وثالثة ورابعة ، وفى العربية متسع لكل ذلك ، فأهل المغرب يسمون السمك حيتانا ، ويحيون من يلقونه بدل السلام بكلمة « لا بأس » وهى مثل « أزى الصحة » عند القاهريين و « كيف الصحة » عند عرب الجزيرة ... الخ ، بالاضافة الى أن طريقة الالقاء والنبر تسبب فارقا آخر فى الالقاء وحتما سينتج عنه فارق فى التدوين ،وهذا الفارق ظهر واضحا فى فنى : الزجل الذى اختص به المغاربة ، والمواليا الذى اختص به المشارقة ، فما يجوز فى هذا يعد عيبا فاحشا فى ذاك ، ومن ذلك استعمال الامالة فى المواليا والتزامهم بها فى القافية مثل :

أى من بنرد الهوى يلعب معى فيرد
ومن جعلنى مثل للشيرر الويرد
موذ قدر أصبر على شيطانك الميرد
دلال يمكن حرد خيره غضب بيرد

العاطل الحالى ـ للصفى الحلى ص ١٣٥

فانه لو قال فى القافية (فارد ، وراد ، مارد ، بارد) لكان ذلك عيبا ، وليس هكذا الزجل . (الفنون الشعرية غير المعربة : المواليا ـ رضا محسن حمود ص ٢١٣) . وكذلك تستعمل بعض الحروف والألفاظ فى الزجل ولاتستعمل فى المواليا ، بسبب اختلاف اللهجات بين المشرق والمغرب ، على مابين هذين الفنين من تقارب (نفسه ص٢١٤).

ولهذا سنجد أن اقليمية الأدب ستفرض نفسها علينا ، ونتحول

عما قليل الى أمم مختلفة فى عصر تتجمع فيه الأمم الصغيرة لأدنى رابطة تجمع بينها من أجل ألا تلتهمها الحيتان من شرق أو من غرب ! ۞

وليس معنى هذا أن العلة التى تسوقها علة قومية يمكن التغلب عليها ببعض الحلول العصرية ، كأن تختار لهجة من اللهجات لتعمم فى وسائل الاعلام التى تدخل كل بيت ، وكفى ، فالدافع القومى على ما له من خطر وشأن عظيم ، ليس علتنا الوحيدة لرفض اللهجات ، ولاسيما أننا نحاول أن نؤصل أسس العلاقة بين النشاطات الانسانية الراقية، وعلى رأسها الأدب العربى، وماعداها من ألوان النشاط الانسانى وعلى رأسها الأدب الشعبى ، فان الأدب لايكون أدبا الا اذا استكمل عناصر البقاء والشيوع، بأن يكون مؤثرا فى أكبر رقعة ممكنة وأكبر عدد من الناس ، ولأطول مدة من الزمن ، وهذا ينطبق بحذافيره على الأدب العربى من دون كل الآداب فى اللغات واللهجات المختلفة ، مهما قيل عن ملاحم هومير أو مآسى سوفوكل أو كوميدية دانتى أو مسرحيات شيكسبير وكورنى وراسين وموليير وبرنارد شو وغيرهم (راجع رأينا فيها فى قضية الفن الأول) .

فان كانت مثل هذه الآثار الرائعة لا ترقى الى مستوى الأدب العربى الخالد ، فأين الأدب الشعبى من ذلك ، وماهو الا عالة على الأدب العربى ، وكناسة موائد أدباء العربية التى يطرحونها فى المخلفات ، وأكثر مايكتب اليوم ينتمى الى هذه الكناسة ، وبمضى الزمن ستجىء أجيال تالية تعامله وتنظر اليه مثل نظرتنا الى أدب عصر الضعف ، وليس مستبعدا أن تصف تلك الأجيال عصرنا بأنه عصر ضعف أو بأنه عصر الهزال المتعالى ، أو الفقر المتكبر ! . اننا لانخشى على الأدب من هذه الكناسة ، ولكننا نخشى علينا نحن العرب من جراء التهام الفضلات،

وترك أطايب الأدب العربى ، أخشى علينا أن نفـرط فى الأمس بسكرة اليوم ، فلا ينتظر لنا غد ، وأخشى علينا أن نجرى وراء كناسة تذروها الرياح فى كل اتجاه ، ونترك مائدتنا الطيبة العامرة ، فنتفرق فى كل اتجاه ونهيم فى كل واد ، لتلتهمنا الذئاب ٠

★ ★ ★

ان نظرة فى نماذج من الأدب الشعبى لبعض اللهجـات قادرة على تجسـيم أبعاد هذه الضحالة والفقر فى الأدب الشـعبى الذى وصـفناه سابقا ، بأنه محدود بدرجة تدعو الى الرثاء ٠

أولا : من العراق قصة (الصياد والبيوضى) لجميل حسين ـ من مجلـة التـراث الشـعبى ع ٧ ـ السنة ٧ ـ ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م ـ ص ١٢٥ ـ ١٢٧ ٠

الصياد والبيوضى

چان ماچان فرد صياد ٠ كاومه الدهر أوصد عنه حظه ٠ كلمـا أيروح للبر أو ينصب أشباچه ايظل النهار أبطوله لمن أتسلم الشمس أو للطير أيمر بيه ٠ أو تاليها أيلملم أشباچه ويرد طيلته ، والحرة جاتلته ٠ يوم ٠٠ يومين ٠٠ عشرة ٠٠ أو هو ما أيبطل من حيث مايعرف شغله غيرها ٠

أو يوم أمن الايام نصب أشباچه أو ظل على عادته ينتظر بلچن حظه يـگعد ، أو لن ساعه والبيوضى أيحط وسط أشباچه ٠ أو لمن شـافه الصياد كام أيتحر وأيلوم لن البيوضى لاينفـع لاشوى ولا طبخ و محد ايدوره تالى صار مجبور أو جذب الشبـچ وأبوسطه البيوضى ٠٠ هم لملم أشباچه على عادته أو حطها أبگته أو رد أو بيده البيوضى ، آخذه أوياه أو هو ايحاچى روحه ، حسه آنه شسوى أبها لبيوضى ، شو كل فايده

مابيه... لاجن لا.. هاى قسمتى .. أو باجن الله يبعث باجر . خلى آخنه أوياى احسن من ردتى ايد وره أو ايد جـدام » . أو لن فجعة والبيوضى يحچى ويناشد الصياد « خويه الصياد .. أنت تدرى أبحالى ، لا أنفع لا أكل أو لا بيع أو لا حتى جنى .. شتگول لو أتهدنى وأغنيك والمغنى الله » . صفن الصياد وأمن الخوف شعرات رأسه وكَفن أو بعد أشويه سولف النفسه « صگد آنه شخسر اذا هديته » وأتوتگك أو كال للبيوضى « خاف أمن أهدك لا بو على أو لا مســـحاته » البيـوضى نب حگك من خضر العود أو يبسه آنه عد وعدى هدنى أو شوف أشلون اغنيك » .

رد الصياد البيوضى أو رد مثلما ايرد كل يوم .. لا جن .. ها .. عده أمل وأمصباح اليوم الثانى راح الصياد على شغله أو نصب أو هو بين مصگد أو بين امجذب .. ولن البيوضى أيلوح أمن أبعيد وأوياه طير غريب ، عمره كله ماشافه الصياد . حطو أثنينهم أبوســط الشبج .. والصياد أيباوع وأيشوف أو هو متعجب من هذا الطير كل ريشه شكل .. ريشه ذهب أو ريشه فضه . كَول بعـد ما أنوانه الصياد مجذب شبحه أو صاد البيوضى والطير الوياه .. أو لملم أشباحه أو حطها ابگفته أو هد البيوضى أو رد بالطير الغريب والدنيا ماتوســـعه من فرحته . وأبنص الطـــريح لحكه البيوضى أو كال له « وين راح أتـودى هالطير » جاوبه الصياد غير أبيعنه بالسوك » كال .. لا ، روح للسلطان أو قدم له هذا الطير هديه .. أو هو هسه يتعجب بيه أو يفرح أو يكرمك .

أو لمن وصل الصياد الكوخه أتلكته مرته أو لانه مو ذاك أصويحبها المعبس المدلغم .. سنه يضحك أو وجهه مبتشر ، أو لمن شـافت الطر عرفت السبب أو كانت .. ها .. جنه أحظيظان كعـد . أو ســولفلها

سـالفته ويه البيوضى أو ما ناموا ذيج الليلة من كثرة الفـرح ٠ وأمن الصبح لبس أحديماته الزينه أوراح القصر السـلطان والطير أوياه ٠٠ أو بعد ما استرخص أمن الحرس طب يرتعش من أبهة القصر ٠٠ أو من محان المحان حتى جابوه للمجلس اللى يكعد بيه السلطان ٠٠ سلم أوهو ما أيثبت على روحه واخذ أيد السلطان أو حبـاهه والوزره كاعدين من هالصفحه نص أو من هالصفحه نص ٠ أو بعـد ماجذب نفسه كال مولاى آنه جيتك أبهالهدية ، صدتها امس ، أوهى مثلما أتشوف جنابك غريبة الشكل ٠٠ كلت ما اتلوك الغير السـلطان ٠٠ السـلطان باوع عالطير أو مد أيده واخذه أو كام الكلب بيه والعجب بادى عليـه ٠٠ والوزره امشبحين أعيونهم وأيبـاعون أبغضب نوبه عالطير أو نـوبه عالصياد ٠ أو بعد أشويه أتشطر السلطان أمن الصياد وأمـر له بالف دينار ٠ اخذها الصياد بعد ما حب اجدام السلطان أو طلع أو چنه عايش أبحلم ٠٠ ولك حكد هاى الدنانير كلها الى ، يو آنه حلمان ٠٠ أو لمن وصل كوخه وشـافت مرته الدنانير حس أبروحه أو كام يتشـكر أمن البيوضى صاحب الفضل أو صادك الوعد واتبدلت حالة الصياد أو زوجته أوطلكوا مكرهم الاسود الجان أمخيـم عليهم ٠ لاچن الوزره الچانو كاعدين يم السلطان شان عليهم فعل الصياد ٠٠ أشـلون ماقدرهم أو جاب الهم هديه ٠٠ ليش فضل السلطان عليهم أنشحنوا عليه أو حكدوا واتحزموا أيذبونه أبليه ٠٠ أرواحوا للسلطان اللى صار شـغله أملاعنة ذاك الطير أو كالوا ٠٠ لـو جان اخو هذا الطير أوياه جا تمت فـرحة السلطان ٠ أو لمن سمع السلطان حجيهم كال : أو اله أخ و٠٠ كالوله أى يا سلطان الزمان ٠٠ ذاك الطير كل ريشه أدك مزيقة شـكل ٠٠ أو لمن سألهم من يكدر أيحصل عليه كالو له الصياد اللى كدر ايجيب هذا

ما يگدر أيجيب أخوه .وأبسع ضنگك السلطان واجه الحرس يتراكضون .. عونك .. أو طلب أيجيبونله الصياد حالا . راحوا الحرس أو جابو الصياد .. والصياد مايدرى شيريد منه السلطان أو ظل مشدوه طول طريجه .. أو لمن دخل عليه طلب السلطان ذاك الطير اللى وصفه الوزره .. الصياد احتار شيكول .. ظل صافن .. جن السلطان هدده وأطاه مدة ثلث تيام اذا ما ابجيبه ياخذ رأسه . طلع الصياد رجليه ايترادمن أو حسبه تاخذه .. أو حسبه أتجيبه .. أو ظلوا هو او مرته سهرانين ابذيج اللينة ايدورون على درب ايخلصهم من هاى الورطة مالگوا أوماظل الهم غير انبيوضى .

وأمن الفجر نگل أشباجه أو راح للبر على عادته الاوليه أو نصب .. واليهناك أو لن البيوضى أيتبعه طير مثلما وصفه الوزره .. وبعد ما حطوا بالشبج جذبه الصياد أو لملم أشباجه أواج يتشكر أمن البيوضى ورد بالطير اللى كل ريشه بيه أذكك مزيقه شكل . وأبوجهه عالسلطان أو لمن طلب شاف الوزره هم كاعدين .. سلم واتجدم أمن السلطان أو سلمله الطير .. لمن شافه السلطان زادت فرحته وأمر للصياد بالف دينار .. لا بن الوزره شاطوا أو كثر غيظهم عالصياد .. أو واحد أيتلاوم ويه واحد وأيدرمون .. أشلون نگبر هالمنعون الوالدين .. أو واحد منهم شايب أكوس ساكت وأيتفكر .. التفتوا اله أو گالوا ... شنهى انت شو ساكت . أو مثل اللنتبه أو جان غافى أو جاوب : اسمعوا منى كل واحد منكم الليلة يخبر مرته أتروح أتسير على مرة السلطان وأهناك لمن يلتمن اينشدنها عن محبة السلطان الها .. وأمن تگول هو يحبنى أجذبنها أو ما أيصكدنها أو يطلبن منها دليل أو من تسألهن عنه ايگولن سوى روحج مريضة واصبغى وجهج ابزعفران أو

حطى على اضلوعج خبزار كاكك أو من أيشوفج ظلى ونى واذا سألج عن الدوا كوليله كل دوه ماينفع غير حليب خنزير ابجلد خنزير ايكوده خنزير أيسوكه خنزير .. وأمن أيكلها ولج أمنين انجيب هالدوا أنكله محد يكدر ايجيبه غير الصياد .. ها .. سمعتوا .

الوزره فرحوا .. أو كالوا والله هاى خوش مكيفه أو بعد ماظن ينجه منها . أو كل وزير سوه المطلوب . أو لمن طب السلطان على مرته شافها أمصو فره وأتون ونه العليل أو كل ماتتحرك أطكطك أضلوعها . اتعجب أو كال كل هالطبيه البلقصر ما نفعوج .. أبصوت ضعيف جاوبته : آنه ماينفعنى غير دوه واحد وصفوه الى .. كال الها : والدوه هذا شنهى ما عدنا منه . كالت : لا . أو لمن سألها عنه كالت حليب خنزير أبجلد خنزير أيشيله خنزير ايكوده خنزيز أيسوكه خنزير .. أو محد كادر على جيبته غير الصياد . وأبليلته وده السلطان عالصياد أو لمن حضر جدامه طلب منه ذاك الدوه وأطاه مهلة ثلث تيام اذا ما ايجيبه ياخذ رأسه . الصياد رد مهموم مغموم ايتعثر باذياله .. أثلون النوب أيدبرها .. هو صياد أطيور يو صياد خنازير .. أ وظل ليلته كلها امجابل مرته أو يتلاومون ، نوبه أينعلون البيوضى أو نوبه أينعلون السلطان أو محتارين كبل ساعده البيوضى أو جاب الطير ، هسه ياهو اليساعده . أو ما أطول عليكم ظل رجاهم امعكك بالبيوضى .

ثانيا : من الشعر النبطى الشائع فى البوادى العربية ، الذى تشبع خطة مرسومة لنشره وتعميمه وفرضه على الأوساط الأدبية وغيرها فى بلاد الجزيرة والعراق (الشعر النبطى - ص ١١٥) وهناك جامعات أدرجته ضمن دراسة الأدب فى أقسامها ، واخرى خصته بدراسات

منفصلة ، وله برامج فى وسائل الاعلام ومهرجانات ليس للشعر العربى مثلها فى تلك البلاد .

يقول محمد السديرى :

صلى صـــالين صلبن بصـــاليه صـــابنى
صطى صارمه بصخاربا لصدر صـــايبه
صفق واصطفق صلبن صرم صافى الحشا
تقصـــا وقص أقصـــا قـــواصى ذوايبه
صروف القضا صالت وصـــابت صبابتى
صدى صدرى الصـــافى وصكت مصـــايبه
صـــليب الصخر لو صـــابه اللى مصيبنى
تصفق صـــفاه وصـــب صـــلصال ذايبه
عصف أصـــفن وأقصى وصـــور لقصـــتى
هصر غصن صـــبن لاصق فى نصـــايبة
لصق فى نصايب صـــاحبن صد واختفـا
صـــباله بصلفّ صـــباه صـــارم نوايبه

ولا تعليق لنا على هذا !

ثالثا : من لبنان ، خرج علينا بعضهم بما دعاه « ملحمة » شعبية بعامية الجبل ، وظهر تعصبه للهجته بشدة ومعـــاندة نعرفها منه ومن فريقه ومن أسلافه ، تلك المعاندة التى حولت لبنان من زهرة وضاءة الى كتلة من اللهب والدماء والخرائب ، وهذه « الملحمة ! » موضوعها قصة رجل من الجبل اسمه طانيوس شاهين ، ثار على الظلم (!) فى القرن الماضى وانشاجمهورية سماها « جمهورية لبنان »وقالوا انها أول جمهورية

فى الشرق ، وقد عمد الكاتب المعاند الى كتابة كل حرف بالعامية ، من المقدمة الى الخاتمة ، حتى بيان الطبعة ، كتبه هكذا : (انطبع ها الكتاب بمطبعة ستاركو شارع لبنان - تليفون ٢٥٦١٥٣) ، (كل الحوادث بها لكتاب تاريخية وصحيحة) ، وفى مقدمته يقول فاضل سعيد عقل مقدم الملحمة العنيد كمؤلفها :

ضوعا لكتاب

من زمان كانت الاقطاعية لأصحاب الأراضى والألقاب والامتيازات السلطانية ، كانوا يملكوا الأرض والانسان الى ماكان يملك من حالو الا حالتو .

بيجوز يكونوا البشر اخوة بنظر السما ، لكن ينظر الأرض الاخوة بعدما صاروا اخوة ليش ؟ لأنو الناس كانوا ، وبعدهن ، طبقتين : طبقة زغيرة ، قوية ، ضميرها أسود ، وطبقة كبيرة ، ضعيفة ، ارادتها غافية

كانت الطبقة المغلوبة عا أمرها تسهر مع الفقر ، هيى وعيالها ، ع حكاية « الفقر نعمة » وعا نغمات الأمثال الكلها ذل ... الخ .

وهذان بيتان « لبطل الملحمة » طانيوس شاهين :

هتونى انى بيطار
وابن مكارى بلبادى
بدى محى بسيفى العار
وريح من شرو بلادى

وقد ظهر أثر الزمن وتغيراته على العامية اللبنانية من هذين « البيتين » اللذين قيلا سنة ١٨٥٨ م ، فالمكارى لم يعد له وجود وسقطت الكلمة ونسمع منهم الآن كلمة « كردى » ، و « مجوى » ، و « محى »

و « ريح » زاد عليها حرف الباء الذى ابتليت به العاميات ! ، واللفظتان فعلان مضارعان حذف منهما حرف المضارعة وهما فى الأصل (أمحى ، أريح) حرفا عن الفعلين العربيين (أمحو ، أريح) .

أما « الملحمة » فهذه سطور منها تحدثك عنها :

بوطة شباب اتجمعو ،
وبالسر راحوا صعبو دق الجرس .
تقلو لو قرمتو بشقفة رصاص ،
ورشو شوية رمل ع محك الصواص .
وضرابتو عالمى كربجها المرس .
تكعى السباع تربعو !
وها الشباب القاصدين العيد ،
بينس وبين المرجلة مواعيد !
تحوكمو عالحبل ،
يتدافشوا ، يتناوشو ، يتطاحشو ،
يدفو تنين تنين ،
عالفخص ، عالزندين
وما تربع نزل
نتمه وصل شيبان
ابن الشيخ سعيد ،
البعدو عريس جديد !
شاف الجرس كعيان ،
عالحبل نتخا ،
فك منو تلات عقد

وزرد وجبينو نعقد !

ما قال : يا ربى !

ومثل اللى بدو يقول للقبى :

« لازم تهابى المشيخا ! »

وجرب يدقو بفرد ايد ،

يبرعط وعنو العالم يحيدو ...

وبلش الدم يشر من ايدو ...

لفوع دياتو التنين ،

وتكمش بها لفلقتين ،

وصار يتحمى ويعطيلو

طانيوس شاهين : أسعد سابا ص ١٣٩ ـ ١٤٢

ورابعا : وأخيرا .. لابد من بيرم التونسى أشهر زجالى العصر الحديث . والذى يعد بلا ريب فاتح باب هذا الفن على مصراعيه لكل وسائل أعلام حضارة القرن العشرين فى بلاد العرب ، ولولاه ما دخلت الى الاذاعة كلمة عامية واحدة .

وهذه من « ديوانه » على لسان :

صعيدى فى باريس

عجلى ملخبط يا خلايج وعنيه مزغللين

من نسوانك يا فرنسا البيض العريانين

يا صلاة الزين يا ماشاالله يا ولاد عالنساوين

على شط السين يا محمد نايمين وممدين

واحدة عاتعوم فى الميه والتانية فى الكابين

لابسين خلجات للركبة دايبين ومجطعين

واللحـــم كزبدة طـرية كاســـياه الفســـاتين
وكمـان وسـط الرجالة بالعنيـــة مدفوســـين
مطرح ما أدوس وأطبش مالجـاش الا عجـــين
وناها اتعجب يا خـوانا بحســب عجـلى التخـين
« اشمعنى جفـاهم أبيض وجفـــايا زى الطـــين »
ونانا شف ليه ومعضـم ودولاتـــه متختخـــين
ونا اسـمى خليفة معوض واســم الحلوين جوزفين
يا خـالج الصـــعايدة عفشـــين ومعصعصـــين
وعاطيهم نسوان عيضـه ناشـــفين ومجشـــفين
عايجولو شـعورنا طويلة وعيوننـــا مكحلـــين
احـرج حيـين أسـيادهم وادفس لى الميتـــين
.... الخ الخ

(ديوان بيرم التونسى ص ٨٢)

ولقد يفهم هذه المنظومة العامية بعض أبناء مصر ، ويعجبون بها، وما أتينا بها ها هنا لهم ، والمنصف من يستعرض النماذج التى أتينا بها جميعـا ، ثم يرجع الى ما وراءها ، ثم يصـدر حكمه عليها جميعـا بعد وزنها بميزان الأدب العربى من وجهتين اثنتين على الأقل : الوجهة الفنية، والوجهة التاريخيـة ، ثم فليستحضر تراث هـذه الأمة ، وليتعمق فى رسالتها نحو البشر والكون ، وليستعرض واقعها المر ، والمستقبل الذى ينتظرها ، وليعلم أن حكمه ، واختياره هو الذى سيحدد هذا المستقبل ثم ليحكم بعد كل هذا فى قضيتنا :

أيحق لنـا أن نحمى أدبنـا من هـذا العـدوان ؟ أم ندعه فريسـه للمعتدين ، مغامرين بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ؟!

اننا نعلم مقدما جواب هذه التساؤلات ، ولكن هل يعيها الآخرون؟ ومتى يعلم أصحاب هذه الدعوات أنهم يهدمون ولا يبنون ، وأن مايرونه من عناصر الابداع فى هذه الفنون ما هو الا سراب يومض من بعيد ولمدة وجيزة ، ثم لا يلبث أن ينطفىء ويخبو ولا يظهر له أثر بعد ؟!

والسر فى ذلك يكمن فى أن هذه العبقرية وهذا الابداع لا يستمدان من معان وضعية ثابتة للغة التى أنشىء بها النص مع قليل من الدلالات المستمدة من البيئة والعصر والحياة اليومية ، وانما هو يستمد كل هذه العبقرية والابداع أو أكثرها من موضعات البيئة ، والحياة اليومية ، أما المعانى الوضعية للألفاظ فهى أقل ما يعتمد عليه فى اظهار هذه العبقرية فمدلول النص يعتمد على دلالة التعبيرات فى البيئة المحيطة وطريقة الالقاء ، مع ما يصاحب ذلك من اشارات وتلميحات ، بالاضافة الى الاشارات الموضوعية الى أحداث قد تنسيها الأيام ، وتذهب من ذاكرة التاريخ ، وأظهر مثال على ذلك (النكات) العامية التى يعسر فهمها خارج بيئتها الا مع شرح وتحليل ، تفقد معه بهجتها وعنصر المفارقة المفاجئة الذى يؤدى الى الاضحاك على البديهة ، أما ما رصد فى أدب الفصحى من هذا القبيل فنادرا ما يفقد عناصر بقائه لأنه يعتمد على المعنى الوضعى للفظ الذى يظل محتفظا به مهما تطورت مدلولاته بتغير الأزمان ، وهو يدور حوله فى كل دلالة جديدة يكتسبها ، فابن الجوزى جمع فى كتابه (الحمقى والمغفلين) مئات من الأخبار التى مازالت على جدتها وطرافتها ، وقدرتها على الاضحاك والتسلية والترفيه ، مع العظة والحكمة البالغة ، والثقافة العالية مع أنها ترتد الى القرون الأولى من حضارة الاسلام ، والمؤلف نفسه من أهل القرن السادس (٥١٠ ـ ٥٩٧) ومضى ثمانية قرون على وفاته ، فهذه الطرفة مما رواه ، دلالاتها تعتمد

على اللغة اعتمادا مباشرا ، ولا يسمعها أحد الا سقطت أمعاؤه من الضحك مهما بعد زمنا ، أو تغير مكانا .

لقى رجل رجلا من أهل الأدب ، وأراد أن يسأله عن أخيه ، وخاف أن يلحن فقال : أخاك ، أخوك ، أخيك ها هنا ؟ فقال الرجل : لا لى ، لو ، ما هو حضر ! (الحمقى ص ١١٦) ، وهذه تعتمد على مواضعات ومدلولات ثابتة ، لا تختلف على الزمان ، وتستمدها من تراثنا العظيم ، وقرآننا الكريم ، ولها من الأثر مثل ما لسابقتها :

صلى اعرابى خلف امام صلاة الغداة . فقرأ الامام سورة البقرة . وكان الأعرابى مستعجلا ففاته مقصوده ، فلما كان من الغد بكر الى المسجد ، فابتدأ الامام بسورة الفيل ، فقطع الأعرابى الصلاة وولى ، وهو يقول :أمس قرأت (البقرة) ، فلم تفرغ الى نصف النهار ، واليوم تقرأ (الفيل) ما أظنك تفرغ منها الى نصف الليل !

(الحمقى ص ١١١) .

وهذه لا تبلى مع دنوها من مستوى العامة ومداركهم ، وفيها من العموم والبساطة ما لا يخفى : قال عبد الله بن محمد : قلت لرجل مرة : كم فى هذا الشهر من يوم ؟ فنظر الى وقال : لست أنا والله من هذا البلد ! (الحمقى ١٦٧) .

وهذه مما يتسم بما يسمونه « الانسانية العامة » على حد قولهم . ومثلها قوله (سمع بعض الحمقى قوما يتذاكرون الموت وأهواله ، فقال : لو لم يكن فى الموت الا أنك لا تقدر أن تتنفس لكفى) (الحمقى ١٧٠)

وأكثر دلالة من هذا على قدرة أدب الفصحى على تحقيق جميع أغراض الأدب الآخر هذا ، مع احتفاظه بقدرته على النفاذ عبر حدود الزمان

والمكان والبيئة والعصر ، التى يقصر عنها كل ابداع محدود ، ماجاء به الجاحظ من النوادر عن البخلاء فى كتـابه الذى خصـهم به ، وغيرها من سائر كتبه ، وما جاء به فى رسالة التربيع والتدوير ، أو ماجاء به ابن زيدون فى رسالته الهزلية من السخرية ، وما جاء به أبو حيان فى كتاب مثالب الوزيرين وابن مماتى فى كتاب (الفاشوش) وكتاب المقاماتولاسيما البديع والحريرى ، وغير ذلك كثير ، مما لا تبلى جدته ولا يذهب مع الأيام بهاؤه . ولا ينضب ماؤه ! .

فاذا عرضنا عليه مواضعات العامية ، رثينا لها ، ورحمناها ، من مصـيرها المحتوم الذى لا يدركه هؤلاء الذين يعتزون بهـا ويفـاخرون ، ولنتفكر مثلا فى قولهم : طلب تلميذ من زميله قلما قائلا : ادينى ألم ! « فصفعه على وجهه ! فالنادرة هنا تعتمد على أن نطق القاف من قلم فى اللهجة القاهرية همزة ، وأن العـوام يسـمون الصفعة (ألم) وكلمة (ادينى) تستخدم بمعنى أعطنى ، وتستخدم بمعنى الضرب (اداله ألم) يعنى ضربه على وجهه ، فاذا أردت أن تروى هذه الطرفة بين جماعة من العرب فى أى اقليم آخر غير مصر ، لما فهموها ولما حركت أحدا منهـم ، أو اذا مضى قرن من الزمان ، وتغير مدلول الصفعة أو نطق القاف ، أو كلمة « ادينى » فى اللهجة القاهرية ، ما فهمها أحد أيضا ، وهذا التغير أمر محتم ، لأن هذه اللهجة وغيرها دائمة التغير والتبدل لأنهـا ليست لغة ، وانما هى مجرد « لهجة » تتلاعب بها أحداث الحياة ومتطلباتها ، وتأخذ منها وتضع وتدع ! ولو شـئنا لأتينا بعشرات الأمثلة على ذلك ولكنا نربأ بأقلامنا عن التدنى ، ومن شاء فليقس على المثال السابق .

وقد أراد دعاة العامية أن يعالجوا هذا القصور ، فبادروا بتسجيل كل ما استطاعوا الوصول اليه من موروثات العامية ، ونتاجهم ونتـاج

معاصريهم ، ولكن هذا لايغير من الأمر شيئا ، فأدب العـــامية اذا تيسر تسجيل ألفاظه وأساليبه ، طمعا فى أن يتخطى حدود الزمان والمكان ، فانه يستحيل تسجيل العوامل الأخرى كالنبر والاشارة وبعض الحوادث المحيطة والعادات والســلوك ، فاذا تغير به الزمان أو المـكان لم يبق الا لفظ حائل باهت ،خال من دلالاته الأخرى ، الا ما كان من المعنى الوضعى الذى لا دخل له فى الابداع العامى الا قليلا ، فلا يعود أدبا بالمرة ، بل ربما يتعجب قارئه أو سامعه من طريقة جمع ألفاظ متنـــافرة لا رابط بينها ولا تعليل لاجتماعها ، لأن هذا الرابط لم يكن شـــيئا ممـا يمكن تدوينه ، وأنى لهم ذلك ! ٠

فاذا عـــرف أن هذه الأداة التى يعتمد عليهـــا هذا النشـــاط (الألفاظ) هى الأخرى محدودة ، قليلة العدد جدا ،تبين لنا مدى الهزال الذى سوف يعانى منه نص أدبى يكتب بها أو يعتمد عليها ،ومدى ضعف العقليات وقصور المشاعر التى تعتمد عليها ، وتحبس أنفسها وعواطفها وأفكارها ، وابداعها فيها بعيدا عن لغـة ذات ثـروة لفظية لانظير لها . وقواعد ثابتة ، قادرة على احتواء جميع المعـــانى والأفكـــار والعواطف والمشاعر التى تجيش بها نفوس البشر أو يتمخض عنها فكرهم وعقولهم !

وقد أرادت العامية حديثـــا أن تعـــالج شيئا من هذه العيوب ، فأصبحت تستعين بالفصحى ، تستعير منها ألفاظا وتعبيرات لـا لا نظير له فيها من المعانى ، كما استعارت من تراثها المكتوب الكثير ، لكى تستفيد من قدرة الفصحى على النفاذ عبر جميع الحجب من أزمنة وأمكنة ونفوس وعقول ، ولم يقتصر دعاتها على هذا ، بل اســتعاروا نصوصا من أدبهـا ونسبوها الى أنفسهم كما أسلفنا ٠

وقد يظن أن هذا التقارب أو التقرب — ان أردنا الدقة — محمود لتلتقى اللغتان فى نهاية الطريق ، ولاسيما أن الأصـــل واحـد ، وأن العامية مشتقة من الفصحى ، وتنفض المشكلة ، ولكن الأمر على خـلاف هذا الظن ، اذ أن المتقرب والمستعير حريص على أن يكون فعله هذا على حساب الفصحى تكسب منه العامية كل شىء ، ولا تربح الفصحى شيئا . بل تخسر أشياء ، أو كل شىء على الأصح ! ٠

هب أن ملحـــدا أو مشركا أتاك طالبـــا منك أن تلتقى واياه فى منتصف الطـريق وتتوحدان ، أيمكنك أن تتنازل عن شىء من عقيـدتك لتوافق عقيدته ، من منطلق استعداده للتنازل عن شىء فى المقـابل أو أشياء ، هب أن مسلما تنازل عن جزء من الشهادة ، أو عن بعض الأركان الخمسة أوبعض العبادات ، أيبقى على اسلامه ، أو يبقى عليه من اسلامه شىء ؟ كذلك العربية ،، لايمكنها أن تتنـازل أو أن تلتقى فى منتصف الطريق ، لانها ستخسر حتما ، والرابح هو العامية وأدبها لاغير ، ولئن اقتربت العامية من الفصحى فى لفظة أو تعبير فستبقى مختلفة عنها فى أشـياء ، ولو كان الهدف من التقارب أن يصـبحا شيئا واحدا فلمـاذا لاتطرح العامية من الآن ؟ ولايبقى الا أن نعود الناس أن يرتقوا حضاريا ويكتفوا بابداع الفصحى ؟ والجواب عنهم اذا سكتوا عن الاجابة : هـو أن هذا ما لايريدون ولن يكون ، وانما المطلوب والهدف أن تعالج العامية عيوبها من خلال الفصحى ، وأن تحل هى بعد ذلك محل الفصحى ، بعد أن تتغذى وتنمو وتقوى على حسابها ، أسوة بما فعلت اللغات الايطالية والفرنسية والجرمانية باللاتينية ! ٠

وليس لقائل أن يقول : ان (الف ليلة وليلة) والسير وما أشبهها

قد بقيت وما زالت تفهم ويظهر ابداعهـــا كل يـوم وتكسب آلافا من المعجبين والرواد ، وتستحوذ على عنـــاية الدارسين والمترجمين من عرب وغيرهم ، حيث انه قد ثبت لنا من خلال هذه الدراسة ان هذه النصوص جميعا ليست من الأدب الشعبى وما كانت ولن تكون من هذا النشـاط الانسانى فى شىء ، فلئن كانت هذه النصوص قد عدت أدبا شعبيا على حد تعريفهم للأدب الشعبى ، فاننا لا نقر لهم بحدهم هذا ، وأننا لنرى أنها تعد من أدبنا وتمثل مرحلة من مراحله ، وهى أدب عربى من نتاج عصر الضعف الذى لحق بالأمة فكرا وتأليفا ولغة ، شأنها شأن كثير من نتاج ذلك العصر الذى أتسم بالصنعة والتقليد وضعف الفكر واجترار القديم .

وقد أفرز العصر الذى ولدت فيه الليـالى والسير والزجل والموالياً كثيرا من الآثار الأدبية والفنون الأدبية التى تتسم بكثير مما اتسمت به تلك النصوص التى عدت أدبا شعبيا ، ومع هذا لم يقل أحد انهـــا من الفنون الشعبية ، فالزجل والموال يشتركان فى كثير من الخصـائص مع فنون ضمت اليها وسميت جميعا الفنون السبعة وهى : (الموشـــحات والأزجال والدوبيت والسلسلة والكان وكان ، والقوما والموالبا) ونضيف اليها فنا آخر ذكره ابن سـعيد المغربى فى المغرب (ج ٣ ـ ص ٤٤ ـ مخطـــوط ـ دار الكتب ـ مصر) وهو البليق الذى كان يصنعه أهل الفسطاط ، وهذه الفنون جميعا متداخلة بحيث يصعب التفريق فيها بين ما ينتمى الى العامية وما ينتمى الى الفصحى ، وهى من نتاج ذلك العصر باستثناء الموشح الذى بدأ مبكرا ، وكان فنا أدبيا رفيعا برع فيه أهل الأندلس ، ثم لحق بالزجل وغيره من هذه الفنون فى العصور المتأخرة ، بل لحق بها الشعر أيضا فى التردى والضعف .

وليس هذا فحسب ، بل اننا يمكن أن نستخرج كثيرا من سمات الليالى والسير من التراث الفكرى والأدبى العربى فى ذلك العصر ، وأوضح هذه الخصائص خاصية الضعف المشار اليها آنفا ، وخاصية الهزال الفكرى المؤدى الى تصديق الخرافات والأوهام وشطحات الخيال وسبحاته ، وهو ما أكدنا كثيرا على ارتباطه بالأمم البدائية ، وعصور الضعف ، وقصور الفكر عن التوصل الى العلل المنطقية لظواهر الطبيعة، مما يفسح المجال للخيال المريض والخرافات ، وفى هذا العصر امتلأت كتب التاريخ والأدب ، ولاسيما ما كان منها للمتصوفة والشيعة ، بأحاديث الخرافات ، والتهويل والمبالغات ، سواء فى وصف أبطال التاريخ أو المعارك الحربية أو ظواهر الطبيعة المشاهدة أو عالم الغيب ، بل امتد الأمر الى المزج بين عالمى الغيب والشهادة مزجا قبيحا ، حتى برزت على الساحة ، قصص التعاون بين الانس والجان أو تسلط بعضهم على بعض بالتسخير أو بالخطف أو بالعشق والزواج والحرب ... الخ وهذا الذى نراه فى هذه السير وفى الليالى بوضوح ، نرى شبهه فى كتب مثل مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذانى ، الذى يرتد الى سنة ٧٢٥ (طبع فى ليدن سنة ١٣٠٢) ، وفى كتاب الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، لابن ظهيرة (طبع فى دار الكتب المصرية سنة ١٣٨٩) الذى يرجح أنه من أهل القرن العاشر ،وكتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار المجهول المؤلف (طبع فى العراق سنة ١٩٨٦م) والتى نرى فيها أحاديث عجيبة عن السحر والطلاسم عند الأمم القديمة، وهذا بسبب عجزهم عن فك رموز الآثار التى وجدوها ، ولاسيما آثار مصر ، أما كتب الشيعة فحجم مافيها من الخرافات أكبر من كل وصف،

وأكثر هذا يرتد الى عصر التخلف والضعف الذى ولدت فيه كل هذه النصوص التى يطالب بها دعاة العامية ٠

أما من جهة الأسلوب ، فمن اليسير جدا اكتشاف مدى التشابه وتقارب المستوى بين أسلوبى السير والليالى وأساليب أدباء ومؤرخى عصرها كالعينى المتوفى سنة ٨٥٥ ، وابن طولون المتوفى سنة ٩٥٣ ، ومحمد بن على بن فضل الطبرى المتوفى سنة ١١٧٣ ، والجبرتى المتوفى سنة ١٢٣٧ ، وغيرهم ، ولولا خوف الاطالة لأتينا بنصوص مما ادعى أنه أدب شعبى ، مع نصوص من كتب هؤلاء ، لتوضح مدى التشابه بين هذه الأساليب ، مما يؤكد على أن هذه النصوص تمثل عصرها فى الأدب العربى أصدق تمثيل ، ويؤكد أيضا على مدى الارتباط بين ضعف اللغة وشيوع الخرافات والأساطير فى الأدب من ناحية وضعف الأمة وتدهورها حضاريا وفكريا من ناحية أخرى ، وما ينعكس من هذه الظاهرة ، على اقبال علماء الاجتماع ومن وراءهم على هذه النصوص باعتبارها تراثا شعبيا له دلالته الاجتماعية على عصره ، وهو ما يدلنا دلالة مباشرة وقوية على أن ظاهرة ضعف اللغة ، والهزال الفكرى ، هى المسوغ الأول الذى يدفع هؤلاء الدارسين من حيث لايشعرون الى ضم النص الأدبى الى دنيا الأدب الشعبى ٠

وما دامت الخرافات والخيال المفرط من سمات الأدب الشعبى ، فلا بأس من اعادة لتذكير بأن هذا من سمات البدائية والتخلف والبعد عن الحضارة ، (راجع دراستنا : قضية الفن الأول بين الشعر العربى والمسرح ، فى حديثنا عن الملحمة) ، مما يدعونا الى سوء الظن بمن يتجاوز بالأدب الشعبى علم الاجتماع ، ويدخله فى باب الأدب ، أنه

انما يريد أن يدفعنا الى عصور الظلمات والتخلف والجهالة والبدائية ، فما بالنا بمن يسعى الى احلالها محل أدبنا العربى ، واستبدالها به ! ٠

وكذلك اللغة تتناسب عكسيا مع البدائية وطرديا مع المدنية والحضارة ، فاذا ضعفت الأمة ضعفت لغتها وتردت والعكس ، بل الأصوب من هذا وهو مانعتقده أن اللغة القوية الثرية تنهض بأمتها وحضارتها ، فاذا ضعفت اللغة وطاانت على أهلها ، انحدرت الأمة واتضعت وتخلفت عن ركب الحضارة ، لما للغة من أثر على حركة الفكر ، ونشاط ملكة الاختراع من جهة ، ولما لها من أثر على شخصية الأمة وعزتها بين الأمم من جهة أخرى ، وليست هناك أمة متطورة ناهضة ، تستمد نهضتها من لغة أجنبية عنها ، لا اليوم ولا فى تاريخ الأمم جميعها ، أو تنهض علميا وهى تهدر لغتها وتستعيض عنها بلهجة ضعيفة ! ٠

وقد تبين لنا من هذه النصوص أن الأدب الذى سموه شعبيا هو عينه أدبنا العربى الذى يمثل مرحلة ضعف الأمة وتخلفها وينطبق عليه استنتاجنا بان الأدب الضعيف لغة والمغرق فى الخيال ينمو فى مراحل ضعف الأمة ، وذلك لعدم قدرة الناس على تفسير الظواهر الكونية فى ضوء قوانينها المعروفة للأمم المتحضرة ، ولذلك يلجأون الى تفسيرها فى ضوء الخبال الذى يعزوها الى قوى غيبية كالعفاريت والشياطين والجن ، والغيلان والتنين والعنقاء ، والى الملائكة أحيانا والى السحر ، وهذا ماتبين من السير التى استعرضناها ، ومن النصوص التى أشرنا اليها من كتب تعد أدبا أو تاريخا على حد سواء ٠ وهذا هو التعليل المنطقى لخلو الأدب فى عصور النهضة الزاهرة من ذكر هذه الخرافات ٠

اننى أعلم أن كثيرا من المتخصصين فى الادب العربى سوف يسخطهم أن نعد السير من الأدب العربى ، ويسخطهم أكثر أن نعد الليالى من الآدب العربى ، وأن كثيرا أيضا من الدعاة والعلماء الأجلاء والغيورين على الآخلاق سوف يسخطهم ذلك ، ودافع الجميع أعلمه وأقدره ، وهو أن فحشا واساءة الى الأخلاق قد انطوت عليها بطون صحائف هذه الآثار مما دفعهم الى التبرؤ منها ، والارتياح الشديد لادعاء أرباب الأدب الشعبى أنها لهم وليست من أدبنا ٠

ولكن الأمر ليس على هذا الوجه يستقيم ، لأمرين :

أولهما : أننا نواجه معركة للابادة من قبل عشرات من الفرق ، أهونها يدعو لوضع الأدب العربى فى المتاحف بدعوى أنه أدب ميت ولا يواكب ركب الحياة وحركتها الآخذة فى التسارع نحو الغد وبعد الغد ، ومن هذه الفرق من يدعو لقبر اللغة العربية ، ومنهم من يحارب ضد الاسلام ، ومنهم من يريد أن يغزونا بثقافته ، ومنهم من يريد محونا من فوق الأرض ، وهم لايخفون علينا ، ولكن ربما تخفى أساليبهم فلو تركنا كل مجال لهم ونفضنا أيدينا منه ، لتقلصنا ، وانزوينا ، وتحقق مرادهم بعزلنا ، وانتصروا علينا ٠ وأول ما ينبغى أن نواجههم به أدبنا ولغتنا . ومن المواجهة ألا نفرط فى شىء من تراثنا مهما كان هينا ، أو معيبا ، فان له وجه نفع ، ربما يخفى على بعض منا ، ولكنه يظهر ونحتاجه ، وقد يكون ذلك بعد فوات الأوان ٠

وهذه النصوص أدب عربى ، وتمثل مرحلة من مراحل تاريخه ، ضعفت فيها الأمة ، وتهاوت بعد أن تهاونت فى شأن حضارتها ، واننا لنعلم أن الفنون المغرقة فى الخيال المريض ليست مما يشرف الأمة

المسلمة ، ولكنها وجدت ، فى لحظة ضعف ، فلم لا نفيد منها ، بأن نجعل هذا العصر بكل سيئاته وسلبياته أمامنا ، وندرسه دراسة واعية ، عسى أن يكون درسا نفيد منه لمستقبلنا .

الأمر الثانى : أن هذا الفحش ، وذلك الخيال المريض لم يوجدا فى هذه السير وحدها ، كما بينا قبلا ، وانما وجدا فى كثير من كتب تراثنا ، ولا أحسب أن ذكر خصاء الدلال الذى ورد فى كتاب الأغانى (جـ ٤ ـ ص ٢٧١) يقل فحشا عما جاء فى بعض السير أو الليالى وأن خبر جعفر البرمكى مع جواريه الذى ورد فى الكشكول لبهاء الدين العاملى أقل مجانة منها ، وهذا وغيره لم يقلل من قيمة هذه الكتب الأدبية والتاريخية ولم يدعنا الى التبرؤ منها ، أو مصادرتها واحراقها ومنع طباعتها .

انها معركة فرضت علينا ، وليست معركة للتراث فقط ، وانما معركة التراث جزء منها ، انها حرب ابادة معلنة ، واننا لنعلم أننا منتصرون باذن الله وبوعد منه ، وسيبقى دين الله وكتابه ولغته ، وتراث هذا الدين وهذه اللغة وأدبها ، ولكن اذا تراجعنا نحن أو تهاونا ، فنحن الهالكون ، وسيأتى الله تعالى بقوم غيرنا ، خير منا ، ينهضون بتبعات هذه الرسالة ، ويواصلون المعركة حتى النصر باذن الله .

ولئن كان فى هذه الكتب فحش ، فما أراه الا قليلا ، يغفره لها أنها كانت حريصة على ابراز الصورة الاسلامية والعربية للمجتمع الذى تصوره القصة ، وأكثر الصراعات التى دارت فى الليالى أو فى حمزة البهلوان أو الظاهر بيبرس أو تغريبة بنى هلال أو حتى عنترة كانت بين مسلمين وكافرين من ملل مختلفة ودائما ينتصر حزب الله على الحزب

الآخر ، وحتى فى الصراع الفـــردى بين الخير والشر ، لـم ينتصر الشر على الخير ، قط .

ان هذا ليهون اذا ما قيس على التخلف المزرى الذى يحتفـــل به أرباب الأدب الشعبى ويهللون له ، وذلك عندما يظفرون بشىء من آثار المعتقدات البدائية كعبادة الأوثان أو ظواهر الطبيعة أو مايتصل بتعـدد الآلهة ، ونسبتهم مثل هذا الى ثقـــافة الشعب وتراثه ، يقول أحدهم (ونحن نعثر دائما على آثار المكونات الدينية المختلفة فى فكر ومعتقدات أبناء هذا الشعب ، سنلمح آثار البوذية والمجوسية والمانوية والزرادشتية والفرعونية المصرية ، والبـــابلية الأشورية لأبنـــاء مابين النهرين ، والفينيقية على الساحل الشمالى ، والحميرية على الســـاحل الجنـوبى ، ووثنية روما وأثينا من أقصى الشمال ... وتختلط الأفكـار والمعتقدات والآلهة والرموز ، كما تختلط العبـــادات والمعتقـدات فى الفلسـفات ، ويجوس الأديب الشعبى بين كل هذا المزيج المتداخل (فاروق خورشيد: عالم الأدب الشعبى العجيب ـ ص ٢٤)

اننى لن أناقش فى هذا القـــول مدى صدق مقولة شـــيوع هذه المعتقـدات فى الأرض الناطقة بالعربية ، وهى غير شـائعة ولن أناقش هذا الخلط فى المزج بين الشمال والجنوب والشرق والغرب وهو يناقض أسس الأدب الشعبى ذاته ، المرتبط بالبيئة المحلية الضيقة ، ولن أناقش هذا الخلط بين المعتقدات المتباينة زمانا ومكانا وموضوعا ، ولكن أناقشه فى شىء واحد ، على افتراض صحة مافات ، أنه اذا جاز رصد مثل هـذا من أجل الدراسة الاجتماعية ، أيجوز أن ندعـو الى اســتمراره ونشره وممارسته ، والتهليل له ، على الرغم من أنه يظهر فيه بجلاء مدى تخلفه وبدائيته ومجافاته للمنطق والعقل ؟ .

وهل يكون من يدعو الى اشاعة هذا واستمراره ، داعية تقدم ، مع علمه بأنه على حساب المنطق والعقل والحضارة ؟ بل على حساب عقيدة الأمة وتقاليدها ، وعلى حساب لغتها وأدبها : « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ » .

لا جدال بعد هذا فى أن دعاة الأدب الشعبى عندنا قد جاوزوا كل الحدود ، حتى أصبحوا دعاة تخلف وبدائية ، هذا هو اتهامنا لهم فى ضوء ما يعلنونه من أفكارهم وأعمالهم وغاياتهم ، أما ما بطن واستتر من هذه الغايات فالله تعالى مطلع عليه وكفيل بهم فيه .

★ ★ ★

ألا فليعلم دعاة أدب العامية ، والأدب الشعبى ، والفولكلور ، ودعاة العامية أنفسهم أن كل سهم يوجه الى الفصحى هو سهم موجه الى العامية ، ومصيبها وان طاش فلم يصب الفصحى ، فما العامية الا جزء من الفصحى ، كل صواب فيها وكل عبقرية وكل ابداع انما تستمده منها ، وكل طيش وكل فقر وكل خطأ تستمده من جهالة الناطقين بها وتهاونهم فى حق أنفسهم وعدم اعتزازهم بشخصيتهم الحضارية المتميزة ، ولو سلبت العامية وأدبها ما تجود عليها به الفصحى ما بقى لها الا بعض النزعات ،والزبد الذى يذهب جفاء ، وأيما نص نسب الى الأدب الشعبى زورا فبقى بقاء أدب الفصحى فعلة بقائه فيما جادت به عليه الفصحى من عبقريتها وثروتها ، وقواعدها ، وأساليبها وصورها ،وابداعها وتراثها ، ولو زال شىء من ذلك مابقى للنص « الشعبى » شىء يعتز به أو يتحصن للبقاء . لقد كان ماسموه بالأدب الشعبى . عالة على الفصحى وعلى تراثها وسيبقى كذلك ما بقى ، وان بقى ! .

وختاما ، فالوضع الذى نرتضيه للفن الشعبى والمأثورات الشعبية بالسردا والفولكلور ، هو أن تبقى كما كانت دائما ، فرعا من فروع علم

الاجتماع ، أو علما مستقلا مع ما يلازمه من دراسة عادات الشعوب وتقاليدها وعقائدها ، وتطور كل ذلك خلال مراحل نموها ، دراسة تشريحية أو تحليلية ، أو وصفية أو تاريخية ... الخ ، الا أن يدعو أحد الى ممارسة هذه الألوان وتطويرها ، فضلا عن أحلالها محل أدبنا ، وبهذا ينفض هذا التشابك والتداخل الذى استشعرت معه الأمة الخطر الذى يهدد حركتها الفكرية الناهضة وأدبها من ناحية ، ويهدد تراثها العريق من جهة أخرى ، ويهدد لغتها التى تستمد منها شخصيتها وكيانها ، وتعتمد عليها فى مواصلة مسيرتها الحضارية ، ويهدد وحدتها التى تؤكد وجودها كل هذه العناصر ، التى لا بديل لها يغنيها عنها فى العاميات والأدب الشعبى مهما كان مستواها من الرقى والتقدم .

كما أن الوضع الذى نرتضيه للأدب الذى يريد أن يعد ابدعا ويخترق حجب الزمان والمكان هو أن يكتب بالفصحى أثرى اللغات ، وأقدم لغة حية على ظهر الأرض ! .

هذا نذير ، وكلمة تحذير ، لكل من تسول له نفسه أن يجاوز الحدود التى رسمها التاريخ والعلم والمنطق للتراث الشعبى كظاهرة اجتماعية ، ووظيفة الأدب التى ينهض بها فى ترقية النفوس ، وتنزيه الأرواح ، وتخليص المجتمعات من أردية التخلف ، والباسها أثواب التقدم والتحضر ، ومسايرة حركة البشرية المطردة نحو الغد .

آمل أن تكون هذه الدراسة قد أوضحت بجلاء مدى خطأ وخطر فرض الأدب الشعبى على الأدب العربى ، ومدى خطأ وخطر مصادرة الأدب العربى لصالح الأدب الشعبى ، ومدى خطأ وخطر التهوين من شأن الأدب العربى قديمه وحديثه ، والدعوة الى طرحه .

كما آمل أن تكون فاتحة لدراسات عديدة من المتخصصين فى الأدب والمتخصصين فى علم الاجتماع ، متعاونين أو منفردين ، من أجل تأصيل الأصول وتحديد الحدود لأوجه التشابه والاختلاف ، ومجالات التعاون والتأثير والتأثر بينهما ، والله تعالى الموفق والهادى الى سواء السبيل ...

كاظم الظواهرى

ليلة الجمعة السابع عشر من شعبان سنة ١٤٠٩

المراجـع

١ ـ الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعـاصر ـ محمد محمد حسين ٠ مكتبة الآداب ـ مصر ـ ط ٢ ـ سنة ١٣٨٨ ٠

٢ ـ أخبار الحمقى والمغفلين ـ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ٠ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ سنة ١٤٠٥ ٠

٣ ـ الأدب المقارن ـ م ٠ ف ٠ جويار ـ ت : محمد غـلاب ٠ الألف كتاب ـ رقم ٤٤ ـ لجنة البيان العربى ـ مصر سنة ١٩٥٦م ٠

٤ ـ الأدب المقـارن ـ محمد غنيمى هـلال ٠ دار نهضة مصر ـ ط ٣ ـ سنة ١٩٧٧م ٠

٥ ـ الأغانى جـ ٤ ـ أبو الفرج الأصـفهانى ٠ دار الـكتب المصرية ـ سنة ١٣٤٨ ٠

٦ ـ ألف ليلة وليلة :

(أ) طبعة مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٥ ٠

(ب) طبعة برسلاو ـ سنة ١٨٢٤ ـ عن مجلة التـراث الشعبى العراقية ٠

(جـ) طبعة بيروت : حديثة ٠ د ٠ ت ٠

٧ ـ تاريخ الدعوة الى العـامية فى مصر ـ نفوسة زكريا ٠ دار نشر الثقافة ـ الاسكندرية ـ سنة ١٣٨٣ ٠

٨ ـ حصوننا مهددة من داخلهـا ـ محمد محمـد حسين ٠ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ـ ٧ ـ سنة ١٤٠٢ ٠

٩ ـ دائرة المعارف البريطانية ٠ طبعة سنة ١٩٨٣م ٠

١٠ ـ دفاع عن الفولكلور ـ عبد الحميد يونس ٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سنة ١٩٧٣م ٠

١١ ـ ديوان بيرم التونسى ٠ مكتبة مصر ـ سنة ١٣٦٧ ٠

١٢ ـ ديوان المثقب العبدى ـ تحقيق حسن كامل الصيرفى • معهد المخطوطات العربية ـ مصر ـ سنة ١٣٩١ •

١٣ ـ الشعر النبطى ـ طلال عثمان المزعل السعيد • ذات السلاسل ـ الكويت ـ سنة ١٤٠١ •

١٤ ـ طانيوس شاهين ـ أسعد سابا • منشورات مرقد العنزة ـ بيروت ـ سنة ١٩٦٧م •

١٥ ـ عالم الأدب الشعبى العجيب ـ فاروق خورشيد • كتاب الهلال ـ مصر ـ سنة ١٤٠٨ •

١٦ ـ علم الفولكلور ـ محمد الجوهرى • دار المعارف ـ مصر ـ ط٢ ـ سنة ١٩٧٧م •

١٧ ـ الفنون الشعبية ـ رشدى صالح • المكتبة الثقافية ـ ٣٤ ـ دار القلم ـ مصر ـ سنة ١٩٦١م •

١٨ ـ الفنون الشعرية غير المعربة ـ المواليا : رضا محسن حمود • وزارة الاعلام ـ العراق ـ سنة ١٩٧٦م •

١٩ ـ قضايا النص المسرحى المعاصر بمصر ـ كاظم الظواهرى • رسالة عالمية ـ كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر ـ القاهرة ـ سنة ١٤٠٢ (مخطوطة) •

٢٠ ـ قضية الفن الأول بين الشعر العربى والمسرح ـ كاظم الظواهرى • مجلة كلية اللغة العربية ـ ع ٨ ـ سنة ١٤٠٨ •

٢١ ـ المغرب فى حلى المغرب ـ ابن سعيد المغربى ـ (القسم الخاص بفسطاط مصر) جـ ٣ ـ مخطوط ـ دار الكتب المصرية •

٢٢ ـ المفضليات ـ للمفضل الضبى ـ تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون • دار المعارف بمصر ـ ط ٥ ـ سنة ١٣٩٦ •

٢٣ ـ مقدمة لدراسة قواعد المنهج العربى فى الدراسات المقارنة ـ كاظم الظواهرى • مجلة كلية العربية ـ بالمنوفية ـ ع ٣ ـ سنة ١٤٠٣ •

٢٤ - نهاية الأرب - شهاب الدين النويرى • جـ ٢ - دار الكتب المصرية - سنة ١٣٤٢ •

الدوريات :

١ - جريدة الأهرام : العدد ٣٧٣٥٦ بتاريخ ١٤٠٩/٨/١٢ - ١٩٨٩/٣/١٩م •

٢ - مجلة أكتوبر : الأعداد : ٦٢٨ ، ٦٣٨ ، ٦٤١ ، ٦٤٣ لسنة ١٩٨٩/٨٨م •

٣ - مجلة التراث الشعبى العراقية : ع ٧ السنة ٧ - سنة ١٩٧٦م • ع ٤ ، ٥ ، ٦ ، لسنة ١٤ سنة ١٩٨٣م •

٤ - مجلة الكاتب ع٩ ديسمبر سنة ١٩٦١م ، ع ١٠ يناير سنة١٩٦٢م